



محمد بازي

# تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تاويل تقابلي



# تقابلات النص وبلاغة الخطاب

نحو تاويل تقابلي

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)

الطبعة الأولى  
1431 هـ - 2010 م

ردمك 4-973-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل  
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم  
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)  
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)



## المحتويات

9..... تقديم

### الفصل الأول

بلاغة التقابل في الخطاب القرآني

سورة الفاتحة

13..... تقديم

14..... ثراء الفاتحة

30..... خلاصات

### الفصل الثاني

التقابل وبلاغة الحجاج في كتاب

إحياء علوم الدين للغزالي

31..... تقديم

32..... 1 - موضوع الاشتغال

33..... 2 - دواعي تأليف الكتاب وبنائه

38..... 3 - تأويلية الغزالي

45..... 4 - الدنيا مزرعة الآخرة

46..... 5 - التقابل وصناعة المثال

56..... 6 - المِثال ومِثاله

58..... 7 - تساند الآليات التأويلية

60..... 8 - مثال الدنيا

63..... 9 - خاتمة وتوصية

## الفصل الثالث

التقابلات النصية وأثرها في بلاغة الخطاب الشعري  
مقاربة تأويلية تقابلية لمرثية مالك بن الريب التميمي

- تقديم..... 65
- 1 - النص..... 66
- 2 - مالك بن الريب..... 71
- 3 - البلاد السالبة..... 72
- 4 - الزفرة والقناع..... 80
- 5 - الظنية السانحة..... 83
- 6 - عندما يبكي الحصان صاحبه..... 88
- 7 - القبر المترك..... 90
- 8 - الصدى وصداه..... 94
- 9 - مالك الذي لا يملك..... 98
- 10 - نسوة لو شهدنني..... 103

## الفصل الرابع

تقابلات النص وبلاغة الخطاب الشعري الحديث

قصيدة «نسر» لعمر أبي ريشة تمثيلاً

مقاربة تأويلية تقابلية..... 107

## الفصل الخامس

التقابل بين الخطابات التأويلية

قراءة الكرامة الصوفية عند مفتاح وكليطو نموذجاً

تقديم..... 129

1- حدود النص..... 131

|     |                                |
|-----|--------------------------------|
| 140 | 2 - النص في مرايا السياق.....  |
| 145 | 3 - تأويلية كليلطو/ مفتاح..... |
| 151 | 4 - خطاب الوصف والتأويل.....   |
| 157 | 5 - تأويل التأويل.....         |
| 157 | خلاصة:.....                    |

## الفصل السادس

### البناء التقابلي في خطاب الحكمة

|     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| 159 | نموذج من "المحاضرات" اليوسي..... |
| 171 | خاتمة.....                       |
| 177 | المصادر والمراجع المعتمدة.....   |

## تقديم

التأويل التقابلي إستراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهمها، وهي اختيار إجرائي أسسه محاذاة المعاني بعضها ببعض، وتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها (وجها لوجه) لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي.

تقوم إستراتيجية التأويل التقابلي على التقريب بين العناصر والمستويات ذهنيا، بأي شكل من الأشكال، وذلك عبر إحداث تواجبه بين بنيتين، أو وضعين، أو موقفين، أو غير ذلك. إنه اشتغال في الفهم يقوم على التساند بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات من جهة، وعلى الجهد الذهني المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر النصية والمستويات السياقية.

إن التأويل التقابلي - كما نقترح في هذه المقاربات - إستراتيجية تأويلية يمكن العمل بها كليا أو جزئيا، عبر تطعيمها باختيارات أخرى عند الاشتغال بأدواتها؛ ذلك أن التقابل - ما ظهر منه وما خفي - يظل خاصية كونية وإنسانية ومعرفية وإنتاجية وتأويلية؛ وبالتالي فهو منطلق قرائي يمكن العمل به لتحليل الظواهر الأدبية والفكرية ومعالجة الأفكار والمعاني، وتذوق الأساليب الفنية والجمالية في الخطاب في مدارسنا وجامعاتنا. كما أنه ييسر الوقوف على الأسرار والدلالات الخفية بطريقة متأنية وبسيطة، تفيد الدرس الأدبي، فهو أداة وطريقة تدريجية في عزل المستويات الدلالية وتشقيق المعاني، ثم إعادة بنائها عبر المداخل النحوية، والتركيبية، والصرفية، والأسلوبية، والبيانية، والدلالية، والرمزية في الخطاب موضوع المقاربة التأويلية.

يقوم المقترح القرائي في هذا الكتاب على المزاجية بين التقديم النظري الموجز، والتقريب التمثيلي والتطبيقي المبسط لإستراتيجية التأويل التقابلي؛ وسيلاحظ القارئ أن مستويات التناول تختلف من نص لآخر، كما أن المفاهيم الموظفة في القراءة متباينة، وهذه سمة مميزة للتأويل بالتقابلات، فهو يتجاوز الحدود الضيقة، والإجراءات المنهجية الرتيبة والمتكررة في التناول، ويفتح المجال واسعا في كل قراءة نصية للإبداع، بالقدر الذي يظهر قدرة صاحبها على الاكتشاف، وابتكار مداخل قرائية قادرة على التفاعل مع النص وتذوقه.

غير أن المبدأ المنطلق منه يظل واحدا مُوَحَّداً، لأن التقابل يسكن النصوص والإنسان والعالم من حولنا؛ فلا تقال المعاني ولا تكتب إلا بعد أن تُعَرَّض بشكل تقابلي على المستوى الذهني؛ إذ إن الخطابات تنتج أصلا بكيفية متقابلة عن طريق عرض الأشياء على ما يقابلها، أو يماثلها، أو يضادها، أو يجاورها، أو يتممها، أو يشرحها، أو غير ذلك. إضافة إلى أن صناعة الخطاب الأدبي عموما تتم عن طريق الاختيارات الدلالية الواعية للمنتج، فيحذف ما يريد ويحتفظ بما يريد، وينتقي الأداة اللفظية والأسلوبية المناسبة لذلك. من ثمة يظل التقابل الوسيلة الأنجع للعودة بالمعنى إلى أصوله المتقابلة بشتى أنواع العلاقات والمقصديات.

بمعنى آخر مقابل، إن الاختيارات الإنتاجية للخطاب نابعة أساسا من الوجود المتقابل، والمعاني المتقابلة، ثم من العلاقات المتقابلة بين المعاني، وتبعا لذلك المنطق يحدث فهمها وتأويلها، ثم تفهيمها للآخرين عن طريق التقابل، وذلك أيسر السبل.

يتضمن الكتاب مجموعة من المقاربات التأويلية المركزة على آلية التقابل بشكل محوري؛ وهكذا حاولنا إعادة بناء معاني سورة الفاتحة الكريمة لإبراز بلاغتها وإعجازها، وتقريب معانيها إلى القراء استنادا إلى المقترح القرائي المشار إليه. كما تناولنا بالمقاربة ذاتها بلاغة

الحجاج في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي. وهو ما يعني أن التأويل التقابلي آلية يمكن تطبيقها، كذلك، لتحليل الخطابات ذات الطبيعة الاستدلالية، بحثا عن أنظمتها وأدوات الإبلاغ والإقناع فيها.

وتوسيعا للإستراتيجية ذاتها، حاولنا تطبيقها على نصين من الشعر: قديم، وهو نص مرثية مالك بن الربيع التميمي الشهيرة. وحديث، وهو نص "نسر" لعمر أبو ريشة. وقد اكتست المقاربة طابعا تحليليا وتقابليا وتأويليا، يروم بالأساس التأكيد على فعالية وإجرائية الإستراتيجية المقترحة للوقوف على بلاغة الخطاب الشعري.

ولأن التقابل يسع كل الألوان الأدبية، ويتحقق كذلك في الخطابات الواسفة، فقد عمدنا إلى المقابلة بين قراءتين تأويليتين للكرامة الصوفية، لمؤوليين مغربيين معاصرين، وهما محمد مفتاح وعبد الفتاح كليطو. وقد مكننا هذا الإجراء من الوقوف على الآليات العميقة العاملة في خطاب التأويل عندهما. وفي الأخير لامسنا بعض الملامح التقابلية في خطاب الحكمة، من خلال نموذج منتقى من كتاب المحاضرات للحسن اليوسي.

وهكذا، فإن إستراتيجية التأويل التقابلي يمكنها أن تمنحنا غنى وتعددا وخصوصية وثراء- وإن بدا لأول وهلة أن النص موضوع المقاربة يسير دلاليا في مسار واحد- لأن القراءة التأويلية القائمة على مقابلة العوالم والوضعيات والحالات، بوسعها أن تمكن قارئها من اكتشاف إمكانيات كبيرة لبناء المعنى، فما من عوالم أو أحوال يتحدث عنها النص أو الخطاب، إلا وفي عالم القارئ ما يغنيها ويوسعها ويقابلها، بأي شكل من أشكال التقابل، ظاهرا أو مقدرا، معلنا عنه أو نجتهد في تحصيله عبر أفعال التأويل؛ وذلك لأن الله تعالى خلق في الكون تقابلات بديعة، سواء على مستوى الماديات أو المعنويات، وهذا التقابل الكوني الموجود سلفا هو ما تتأسس عليها الكتابة والتواصل، كما أن

اختيار عناصره بدقة أثناء صناعة النص هو ما يعطي الخطاب التأويلي قوته وجماليته، وإثارته التي تظهر في تجليات فنية مختلفة، لكن الذي يوحدها ويلم شتاتها هو التقابل.

نأمل أن نكون بهذا الجهد البسيط قد ساهمنا في إغناء تجربة القراءة التأويلية بأدوات وإمكانيات تحليلية، تفيد النقد، وتحليل الخطابات، ومجال إلقاء النصوص بالحقول الأكاديمي والمدرسي، عبر الاشتغال بالتأويل التقابلي جزئياً أو كلياً، فالمعاني تُصنع بأبعاد وعلاقات متقابلة، وتُتلقى وتُفهم كذلك وفقاً للأبعاد نفسها، وهو ما يؤسس، فيما نعتقد، لبلاغة تأويلية جديدة.

والحمد لله ككرمهِ وكعزَّ جلالهِ.

**د. محمد بازي**

**أكادير**

5 مارس 2010

# الفصل الأول

## بلاغة التقابل في الخطاب القرآني سورة الفاتحة

### تقديم:

لا بد من الإشارة إلى أننا وقفنا ونحن بصدد الاشتغال على مباحث التقابل في البلاغة، ونظريات الخطاب، والنقد الأدبي، والمنطق، وعلم النص، على بعض الأعمال المميزة التي تطرقت لظاهرة التقابل في القرآن الكريم، ونخص بالذكر كتاب التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي لأحمد أبو زيد<sup>(1)</sup>، أشار فيه إلى أنماط التقابل في القرآن، كما أُلحَّ على ضرورة توسيع هذا المفهوم ليشمل كل أنماط التعبير، حيث أدرك بعمق أن هذا المفهوم تم تضيق مجال العمل به، ويرى أنه من الخير لهذا الدرس "أن يؤخذ مصطلح التقابل، ويعمم على جميع طرق التعبير التي تتظم فيها المعاني على وجه من أوجه المقابلة، سواء أكانت مقابلة بين معنيين متضادين فأكثر، أو بين معنيين متخالفين فأكثر"<sup>(2)</sup>. وصدرت - ونحن بصدد إعداد مواد هذا الكتاب - دراسة أسلوبية تناولت مفهوم التقابل في القرآن الكريم، يضمها كتاب التقابل والتماثل في القرآن الكريم لفائز عارف القرعان<sup>(3)</sup>.

(1) - أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن الكريم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992.

(2) نفسه، ص. 135.

(3) فائز عارف القرعان، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، وجدارا للكتاب العالمي، عمان، ط. 1، 2006.



وهو كذلك كتاب على درجة كبيرة من العمق والتميز في التناول، حيث لم يكتف مؤلفه بحصر التقابلات وبيان أنماطها الشكلية، وإنما حاول الكشف عن علاقاتها الخاصة والعامة في السياق لتبيان قيمها الجمالية والتعبيرية، وتبيان مدى إسهامها في تشكيل المعنى ضمن الصياغة الكلية للجملة والنص<sup>(4)</sup>.

غير أن الدراستين- رغم قيمتهما العلمية والمنهجية في مقارنة ظاهرة التقابل في القرآن- توقفتا عند الحدود التحليلية لمظاهر التقابل وتجلياتها، وحدود خدمتها للمعنى. أما اهتمامنا بالموضوع فيتجاوز مقارنة تجليات التقابل ومستوياته وبلاغته، إلى اقتراح مفاهيم تأويلية تعتمد إستراتيجية التقابل منطلقاً لها، ولا توقف الاهتمام عند حدود النص الديني- كما اقتصت بذلك الدراستان السابقتان- وإنما توسعه ليشمل كل الأنماط النصية والخطابية، في أفق تمتينه منهجياً، وإعطائه القوة التحليلية القادرة على الوقوف عند بلاغة النصوص وجمالياتها، وتقديم أسرار الصناعة الأدبية انطلاقاً منها.

## ثراء الفاتحة

الفاتحة هي عنوان القرآن الكريم إذ إن مضامينها تكثيف بليغ معجز، واختزال بديع للكليات المفرّعة والموسّعة في ثنائه، إذ كل عنوان هو تجميع لمقاصد كتاب أو نص في أوله. ونظراً لبلاغة هذه السورة وفضلها، ارتأينا الوقوف عند بعض أسرارها من زاوية تأويلية تقابلية لتبيان بلاغتها وإيجاز معانيها، وجمال أساليبها.

إننا لا نزعم بهذا الوقفة الموجزة عند سورة الفاتحة أننا قدمنا لهذا النص الكريم- بشكل مباشر أو غير مباشر- شيئاً ذا أهمية قياساً إلى عظمته، بل لازلنا في كل قراءة نستظل بظلاله، ونشرب من ينابيعه

(4) فايز عارف القرعان، المرجع المذكور، ص. 1.

العذبة الثرة، ونغتني من معانيه ودلالاته. لكننا واثقون أن هذه المقاربة لا تعدم فائدة نعود بها على آليات تحليل النصوص والخطابات، ففي مكتة القراء الدارسين أن يستعينوا ببعض الأدوات التحليلية المطبقة- هنا- على الفاتحة تمثيلاً، وتوسيعها لإغناء قراءاتهم التأويلية، ومن ثمة اكتشاف المناحي البلاغية، والمعاني الخفية في القرآن الكريم.

قال الزركشي: "اعلم أن في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل"<sup>(5)</sup>، لذلك نحاول جاهدين طرقه، ليفتح لنا فنجح عوالمه، ونقف على بدائع أسرارهِ. وحسبنا أن نتناول جانباً على درجة كبيرة من الأهمية، وهو البعد التقابلي، الذي نسعى من خلاله إلى تأسيس جمالية تأويلية تعتمد على الطاقات الدلالية التي تحتزنها اللغة والتراكيب، ثم تبيان الطاقات المعنوية الكامنة في إستراتيجية التقابل، وهي جزء من فهمنا للعالم من حولنا وللظواهر النصية. قال الحسن البصري: "إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة"<sup>(6)</sup>.

هذا الثراء المعنوي الكبير الذي تزخر به الفاتحة، يفتح أمامنا باب المشاركة التأويلية بالمقاربة التي اخترناها. وما ذلك إلا لقابلية النص للمحاورة الدلالية، والخصوبة المعنوية التي هو عليها. وهكذا، سنحاول الوقوف عند التقابلات الظاهرة والخفية، مقدمين بعض المفاتيح المفهومية والإجرائية لبناء المعاني والدلالات. وكما تقول العرب: من طرق الباب ولجَّ ولج. والله الهادي لما فيه صواب القصد.

(5) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988، ج. 3، ص. 519.

(6) جلال الدين السيوطي، الإقتان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1991، مج. 2، ص. 345.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④  
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥  
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

بوسع القارئ المتأنّي الذي يعتمد خطة التأويل التقابلي أن يتخلص من البسمة الإمكانات التقابلية التالية، وبعد ذلك مجموعة من المعاني، ليكشف أسرار هذا الخطاب الكريم وبلاغة صناعته:

المتبرّك (القارئ هنا) / المتبرّك به (الله تعالى) . ويمكن أن نشير إلى تقابل خفي: التبرّك باسم الله مقابل التبرّك باسم غير الله - العزى واللات مثلاً - كما كان يفعل الجاهليون. إن حضور اسم الله دليل على صحة فعل التبرّك به ونفي للتبرّك بغيره. ويسمح لنا المكون المعجمي "الله" بإبراز التقابل بين: الله/ المألوه. والله أصله الإله، وهو اسم جنس يطلق على كل معبود بحق وبياطل، ثم غلب على المعبود بحق. أما الله فلا يطلق إلا على المعبود بحق.

إذا تعمقنا في دلالة "أله" نجد أنها تدل على التّحيّر، لأن الله تحير الأوهام في معرفته<sup>(7)</sup>. وهكذا وبناء على هذا المعنى فإن المتحيرين هم الخلق مقابل المتحيّر فيه الله تعالى. إن المعاني اللغوية والمداخل المعجمية تمد التأويل التقابلي بإمكانات معنوية غنية، فكلما توسع البحث اللغوي كلما اغتنت القراءة بمعان جديدة. لكن في الغالب لا يتوقف القارئ العادي إلا عند المعاني الظاهرة، ويظل استخلاص

(7) جار الله الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تصحيح وضبط: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1995، ج. 1، ص. 16.

المعاني العميقة من عمل المتخصصين من أهل اللغة والتفسير والفقه. إن التأويل التقابلي تجول فاحص ومتأن لمكامن المعاني وكيفيات صياغتها.

الرحمان تُقابل الرحيم، والتقابل لا يعني فقط التضاد أو التماثل، بل يعني كذلك التكامل والتميم، فصفة "الرحمان" تتناول جلائل معاني الرحمة وعظائمها، و"الرحيم" تتميم لما لطف منها، والرحمة معناها العطف والحنو، ومنها الرحم لانعاطفها على ما فيها<sup>(8)</sup>.

بالإمكان ملاحظة التقابل الثلاثي بين: الله/الرحمان/الرحيم، وهو تقابل تميمي يثبت معنى الألوهية الحقّة، ومعنى الرحمة الكاملة بالعباد. وفيه تعليم للعباد كيف يتبركون به ويحمدونه ويمجدونه. قال الغزالي: "إذا تفكرت وجدت الفاتحة على إيجازها مشتملة على ثمانية مناهج فقوله (بسم الله الرحمان الرحيم) نبأ عن الذات وقوله (الرحمان الرحيم) نبأ عن صفة من صفات خاصة، وخاصيتها أنها تستدعي سائر الصفات من العلم والقدرة وغيرها، ثم تتعلق بالخلق وهم المرحومون تعلقاً يؤنسهم به، ويشوقهم إليه، ويرغبهم في طاعته"<sup>(9)</sup>.

بالإمكان الوقوف عند التقابل الضمني، هنا، فذكر صفة الرحمة في البسملة مما يفرح النفس ويشوقها، وفي ذلك ترغيب في الطاعات، خلافاً للغضب الذي يوحش النفوس ويخوفها وينفرها. تقوم القراءة التقابلية على العناصر الحاضرة، كما تقوم على العناصر الغائبة والمبينة تأويلية. لأن النسق الأسلوبي هو الصورة اللغوية الظاهرة التي تثوي وراءها ظلال المعاني، إلى أن يقف عليها ذهن مؤول يُخصّصها؛ ومعنى هذا أن العمل التأويلي ينطلق من رصد الوحدات التعبيرية ثم رصد

(8) الزمخشري، الكشف، م.م، ص. 18.

(9) أبو حامد الغزالي، جواهر القرآن ودرره، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. 5، 1983، ص. 38.

شبكة علاقاتها، لتجميع كل ذلك في مستوى واحد يعود إلى السطح أولاً، ثم يمتد إلى الذهن ثانياً<sup>(10)</sup>.

تضمنت سورة الفاتحة أمهات المطالب والدلالات العميقة. قال النبي (ص) لأبي بن كعب: "ألا أخبرك بسورة لم ينزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"<sup>(11)</sup>. وقال علي رضي الله عنه: "لو شئت أن أوفر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت"<sup>(12)</sup>. ومعنى ذلك أن هذه السورة على اختزالها وإيجازها تتضمن معان غزيرة وعلوماً شتى. ولقد أفاض المفسرون في هذه المعاني والدلالات.

## الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \*

### مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

لو حاولنا فهم الأشياء بمقابلاتها سواء كانت مرادفة أو مضادة، ظاهرة أو خفية، فإن المكونات المعجمية في هذه السورة تمنحنا إمكانيات هائلة، وهكذا فلن نسير في منحى خطي، على غرار التفاسير، بل نتقدم في جميع الاتجاهات التأويلية بهدف إثراء القراءة، وإيقاف القارئ على بعض مواطن الخصوبة والبلاغة في هذه السورة البديعة.

الحمد لله حاصل، وهو تعليم من الله لعباده كيف يحمده، مقابل الحمد لغير الله وهو متروك لأنه كفر وجحود وضلال. الحمد المطلق ثابت مقابل الحمد النسبي: بعض الحمد لا يدخل في تعليم الله خلقه وما يريده لهم. ثم إن الحامدين هم المؤمنون والمسلمون مقابل المحمود (الله تعالى). كما أن الحمد الدائم ثابت ومستقر مقابل الحمد المؤقت غير وارد إطلاقاً.

(10) فايز القرعان، م.م، ص. 284.

(11) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي.

(12) السيوطي، الإتقان م.م، ص. 409.

الحمد كلمة من الله أولاً مقابل الحمد من المخلوقين بعد ذلك. وهو تعليم من الله مقابل الحمد تبعاً لذلك حمد من العباد وتعلم. الحمد: ابتداء للكلام يفتح باب السؤال عن الخبر: الحمد لمن؟ مقابل الخبر "لله" الذي يبعد كل التباس، ويؤكد حقيقة واحدة أنه حمد لله. ورد الحمد الذي أرادته الله لعباده مرفوعاً بالضمّة دلالة على الثبوت والاستقرار وهو يقابل الحمد (المنسوب أو المجرور) وهو متغير غير وارد. والحمد هو الثناء الكامل مقابل الذم: النقيض الغائب. ثم إن الحمد: حمد الله الكامل لنفسه منذ الأزل يقابل حمد الخلق المشوب بالعلل. وقالوا إن الحمد والشكر (نصف الإيمان) مقابل الصبر (النصف الثاني للإيمان).

إن مجمل الخلاصات التي يمكن أن يفرضي إليها استقصاء التقابلات التي في: "الحمد لله" يمكن تجميعها كما يلي: إن الحمد كل الحمد لله لا لغيره، وهو حمد مستقر وثابت له وحده، حمد دائم لا انقطاع فيه لشمول نعمه على خلقه وعمومها. وهو، كذلك، حمد الله لنفسه منذ الأزل لعلمه بعجز المخلوقين عن الحمد الكامل له. إنه حمد كامل ممتد لا ينتهي، يستغرق الأزمنة والأمكنة كلها. ثم إن الحمد شطر الإيمان العملي وهو أول الصراط المستقيم، وفضل الحمد كما قال الغزالي كفضل الرحمة على الغضب<sup>(13)</sup>، لأنه يصدر عن الارتياح وهزة الشوق والمحبة، أما الصبر فيصدر عن الخوف والرغبة والكرب والضيق، وسلوك طريق المحبة أفضل من طريق الضيق في هداية العباد.

## رَبِّ الْعَالَمِينَ

بوسعنا استقصاء التقابلات التالية: الرب يقابله ضمناً وجود مربيين. وهو يقابل دلالياً السيد المصلح والمدير والمربي. الرب بالتعريف خاص بالله تعالى مقابل رب الشيء بالإضافة أي صاحبه،

(13) الغزالي، جواهر القرآن، ص. 39.

مثل رب البيت، يصدق على المخلوقين. الرب مقابل المالك: أي مالك العباد وهم مملوكون. العالمون مقابل غير العالمين، كما أن العالمين تُقابل الإنس والجن والملائكة والشياطين. والعالم الظاهر يقابل العالم الخفي، ويقابل أولو العلم (المكلفون) ما لا يعقل إجمالاً.

إن تشقيق المعاني انطلاقاً من الألفاظ اليسيرة، يمنح القارئ المتفهم والمؤوّل إمكانيات هائلة لتوسيع الدلالة، سواء تعلق الأمر بتقابل الترادف أو التماثل المعنوي أو تقابل التضاد والتخالف؛ لأن الأشياء تتجلى بنظائرها، أو بأضدادها، أو بمتماتها. وهكذا فمعنى "رب العالمين" سيدهم ومالكهم ومربيهم؛ فالله هو الخالق المالك، والعالم هو المخلوق بتنوعه، مدين لله بإنعامه وخلقه وتربيته. قال السعدي: "وتربية الله لخلقه نوعان: عامة وخاصة، فالعامة هي خلقه المخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه"<sup>(14)</sup>.

إن المعنى الذي نستفيدة من إجراء التقابلات الممكنة هو أفراد الله بالخلق والربوبية، وتدير شؤون الخلق ورزقهم. ومن كانت كل أمور الخلق منوطة به من بدايتها إلى نهايتها، فهو أحق بالعبادة والطاعة، فالحمد لله لربوبيته وإلهيته وخلقه وإنعامه وإكرامه الخلق وعظمته وجلاله. ومن علامات ربوبيته إرساله الرسل والأنبياء للناس لهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

## الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

سبق أن أشرنا أن بين "الرحمان" و"الرحيم" تقابل تميم؛ فدقائق ولطائف معاني الرحمة في الرحيم إكمال لجلائل وعظائم معاني الرحمة

(14) عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، الطبعة 1، 2000، ص. 39.

في الرحمان. ونقابل الآن هاتين الصفتين بـ: "رب العالمين"؛ نحمل "رب العالمين" معاني العظمة والجلال، وفي ذلك ترهيب للعباد، فقبولت ضمينا بمعاني الرحمة في: "الرحمان الرحيم"، وفي ذلك تقابل بين: الرهبة من الله والرغبة إليه، وذلك أعون على طاعته. كما قال تعالى في تقابل بديع: "نبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم". ومن تمام رحمة الله على عباده تعريفهم ما ينالون به كمالهم الدنيوي والأخروي، عن طريق الرسل والأنبياء الذين حملوا الهداية للعباد. ومن المعاني الفرعية المتقابلة داخل معنى الرحمة: الرحمة بالماديات من المأكّل والمشرب والملبس وغيرها من نعم الله التي لا تعد ولا تحصر، والإنعام الروحي بما فيه حياة القلوب والأرواح، وكل ذلك داخل ضمن رحمة الله.

### مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ

تمنحنا الآية موضوع الفهم إمكانيات تقابلية: ملك: الله مقابل المملوكين: العباد. مَلِكٌ - قراءة صحيحة عن النبي (ص) - مقابل مَلِك قراءة كذلك صحيحة. ملك مقابل يوم الدين. الزمان (يوم) يقابل ضمينا المكان، وفضاء الحساب كذلك ومكانه مملوكان ومالكهما الله تعالى. وبوسعنا توسيع دائرة التقابل فنقول: اليوم على الحقيقية: من طلوع الشمس إلى غروبها مقابل اليوم على الاتساع ما بين بداية القيامة إلى حين استقرار أهل الدارين فيهما. وتسمح لنا كلمة "الدين" بتوليد معان إضافية، فيوم الدين يحتمل ضمينا وجود المُدين: المحاسب: الله تعالى مقابل المدانين: المحاسبين وهم الخلق. ومن ثمة فالامتلاك الكلي ليوم الدين حاصل لله تعالى، ويقابله كون الامتلاك الجزئي والكلي مستف في حقه تعالى.

تبعا لذلك، فالممتلك امتلاكاً تاماً ليوم الدين أحق بالحمد. أما المعاني الفرعية التي يمكن توليدها وتنميتها من ذلك فهي: مَلِكٌ أبلغ



في مدح الخالق مقابل مَلِك أبلغ في مدح المخلوقين. ينضاف إلى ذلك أن المالك دلاليا ملك في مقابل أن ليس كل مالك ملكا. ويستتبع ذلك على مستوى الشرح والتوضيح أن سائر الأيام عمل ولا حساب، مقابل يوم الدين حيث الحساب بعد انقطاع العمل بالموت. وحيث كمال الملك يوم الدين لله، ويقابله سلبا انقطاع أملاك الخلائق. ثم هو يوم للجزاء (أهل الجنة) مقابل العقاب (أهل النار)، بناء على ما جاء به الناس من أعمال الخير مقابل ما جاؤوا به من أعمال الشر. وكل ما يتعلق بهذا اليوم من مكونات يمكن استحضاره بشكل تقابلي لتكتمل الصورة، وهو أسلوب حاضر بقوة في الخطاب القرآني، وفي عرض مشاهد القيامة، فالفقراء والأغنياء على السواء ينتظرون الجزاء، والأحرار والعبيد كذلك، الذكور والإناث، المؤمنون والكفار....

ومما يسمح بتقريب المعاني من قارئ سورة الفاتحة عرض المعاني المفهومة عرضا تقابليا، ومن ذلك أن نقص مَلِك الخلائق يقابله كمال الملك والعدل لله تعالى. ولعل من الأسرار اللغوية التي يسمح بها المعجم العربي أن كثيرا من الكلمات تستعمل بمعان مضادة حسب السياق، وعبر المقابلة بين المعاني نجد أن "دان الرجل" بمعنى أطاع مقابل "دان الرجل" بمعنى عصى. كما أن "دان الرجل" تستعمل بمعنى عَزَّ مقابل "دان الرجل" أي ذل، فهو من الأضداد. و"التضاد نوع من الاشتراك، وهو من أعجب ما في أمر هذه اللغة، لأنه إيقاع اللفظ الواحد على معنيين متناقضين، ومثل ذلك، إذا لم تصح فيه الحجة، ولم ينهض به الدليل كان عبثا؛ لما فيه من التباس أطراف الكلام ورجوع بعضه على بعض بالنقض، وإن أُصْحِب من القرينة بما يوضح تأويله ويعيّن جهة الخطاب فيه"<sup>(15)</sup>. ويوم القيامة يحتوي كل هذه الأصناف

(15) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة 2002، ج 1، ص. 163.

والحالات، حيث يجتمع الطائعون لله والعاصون، وحيث يُعزّز الله تعالى من يشاء ويُذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

أردنا أن نبه القارئ عبر آلية التأويل بالتقابلات إلى بلاغة نص الفاتحة الكريمة، وامتلائها بالمعاني العظيمة، ظاهرة وخفية؛ ولذلك سخرنا هنا آلية التقابلات المبنية أي التي بينها التأويل، والدوران على المعاني، والإشارات العميقة التي تمنحها العبارات على اختزالها. وهكذا يمكن تجميع المعاني التي منحها لنا الأبعاد التقابلية في أن الحمد لله مستحق، وهو حمد كامل متقرر صادر من القلوب المؤمنة في كل زمان ومكان، لربوبيته، وألوهيته وعظمته، ولأنه هو الذي يملك العباد يوم الدين ليقرر في شأنهم ما يشاء يوم الثواب والعقاب، ومن ثمة فهو أدعى للرهبّة والخوف، لأن مصائر العباد متعلقة بخالقهم، فمن شاء أدخله الجنة، ومن شاء أدخله النار. ومن شاء غفر له ومن شاء عذبه. إنه اليوم الذي تنقطع فيه أملاك الخلائق ويبقى الملك لله. وتثبت هذه الآية المعاد والجزاء والعقاب. ومقابل الحمد الذي علمه الله لنا، فقد علّمنا نبيّه كذلك عبارات الحمد لله: "الحمد لله عدد خلقه، ورضى نفسه، وزنه عرشه، ومداد كلماته"، و"الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه"، و"الحمد لله ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما من شيء شئت بعد".

### إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

من التقابلات الظاهرة في هذه الآية: تقابل نحوي ظاهر أصل مقابل بناء نحوي مُحَوَّل لغرض بلاغي عن الترتيب الأصلي، وقد أفاد المفعول المقدم حصر العبادة في الله وحده، مقابل الفاعل المؤخر. كما تمت مقابلة العبادة الدالة على الخضوع والالتحام الإيماني الكبير بالاستعانة القائمة على جلب المنافع ودفع المضار. ثم الانتقال الأسلوبى

من الغيبة إلى الخطاب، وهو يخلق نشاطا عند السامع، وبناء تقابليا بديعا في تلوين الضمائر، أو ما يسميه القدامى بالالتفات.

أساس العبادة قوة التذلل لله والخضوع، وفي ذلك إعلان عن الضعف والاستلام للخالق، ثم يكتمل إظهار الافتقار إليه عبر مقابل مماثل وهو الاستعانة به، وكلاهما طريق معبد مذلل للسالكين. وتتفرع عنهما معان خفية؛ فالعبادة تقوم على تحلية النفس والإخلاص في أداء الشعائر، مقابل الاستعانة وهي تركية النفس من الشُّرك وطلب الحول والقوة من الله تعالى دون غيره، ولا بد من الإشارة إلى تقديم العبادة وهي الوسيلة والسيّل، مقابل تأخير الاستعانة وهي الغايات، وكأن في ذلك إقرارا بضرورة إنجاز العمل وتقديم الطاعة وإظهار التذلل قبل طلب المعونة، وفي ذلك أدب كبير مع الله تعالى، وهو أدعى للاستجابة كما هو مثبت في الكثير من النصوص القرآنية والحديثية.

ثم إن الاستعانة المرادة مطلقة غير محددة، ومقابلها الضمني الاستعانة المحدودة في أمر معين وهي غير واردة، وهو دليل قدرة الله تعالى على الاستجابة لكل ما يطلبه عباده، فلو حُدّد موضوع الاستعانة في أمر واحد دقيق، لفُهم العجز عن إجابة كل الدعوات، وذلك منفي ضمنا، فقدرة الله تعالى تتسع لجميع حاجات عباده.

ويمكن أن نستخلص من هذه التقابلات المعاني التالية، إذ الهدف من إجرائها تبيان المعاني والدلالات وإبرازها على أجلي صورة. بعد حمد الله حمدا كاملا مستغرقا تاما لا نقص في ولا انقطاع لاستحقاقه العبودية؛ لأنه الخالق والرب والرحمان والرحيم، يقر المؤمن -كما علّمه الله أن يتضرع إليه ويدعوه- بأن العبادة لله وحده، والاستعانة عليها وعلى غيرها من أمور الدنيا مطلوبة منه وحده. وقد عمل الحصر وتقديم المخصوص بالعبادة والاستعانة على قصر التذلل والخضوع على

الله عز وجل دون غيره من المخلوقين والمخلوقات.  
 كما أن المعين على طريق الصلاح والمنافع ودفع المضار يحصره  
 المؤمن في الله تعالى دون سواه. وتختزل الآية جانبين رئيسين من  
 عقيدة المؤمن، وهما تحلية النفس بالعبادة والإخلاص، وتركيتها بنفي  
 ما لا ينبغي، وقد تضمنهما التقابل الخفي المبني انطلاقاً من الصراط  
 المستقيم، وهي دون جدال طريق تحلية النفس بما ينبغي وتركيتها مما  
 لا ينبغي.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ  
 الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

بوسع القراءة التأويلية المتأنية أن تستقصي مجموعة من الإمكانات  
 التقابلية التي تساعد على الفهم العميق، واستقصاء جهات واسعة من  
 الدلالة انطلاقاً من الآية: الأمر الحقيقي مقابل الأمر الاستلزامي، حيث  
 إن الأمر هنا خرج عن مقتضاه الأصلي الذي هو طلب الفعل على وجه  
 الوجوب والاستلزام - من مقام أعلى إلى مقام أدنى - ليتخذ معنى الدعاء  
 والطلب والسؤال، لأنه صادر من مقام أدنى (العبد) إلى مقام لا يعلوه  
 مقام (الله)؛ وهكذا فهناك طالب الهداية مقابل القادر على الهداية  
 والمأمولة فيه بشكل مؤكد. وهو كذلك تقابل في فاعلية الهداية (لله)  
 مع المهدي (العبد) أولاً، والمهتدى إليه ثانياً وهو الصراط المستقيم.  
 وبشكل ضمني أو عبر الحذف البليغ، والذي يبينه التأويل بالتقابلات  
 نحدهس السؤال: كيف أعينكم؟ فجاء جواب العباد المخلصين: إهْدِنَا  
 الصراط المستقيم، وفي ذلك رفع لمقامهم، وكأنهم عرفوا الحقيقة  
 الدنيوية ومآل الأمر كله إلى الله، وإلى الحساب، ثم الجزاء أو العقاب  
 فلم يطلبوا أي شيء من ماديات الحياة الفانية، وإنما طلبوا ما يهدي  
 إلى طريق الخلاص.

وبالعودة مرة أخرى إلى الآية الأولى نلاحظ أن السورة كلها يحكمها تقابل نووي مركزي: مجمع الثناء والشكر مقابل مجمع المطالب والحاجات.

معنى الهداية الإرشاد والإمالة إلى الصراط المستقيم، وفي ذلك تقابل إدراك الداعي لأمرين متقابلين: الصراط المستقيم مقابل الصراط غير المستقيم. وأصل الصراط: السُّراط، من الاستراط، وكأن الطريق تسترط من يملكها. وهو تقابل آخر بلاغي بين الصراط على الحقيقة (غير وارد) والصراط مجازاً وهو المراد.

وكما لاحظنا هنا تقابل المفارقة بين معنى الصراط المستقيم والصراط الملتوي أو المعوج، أو صراط المغضوب عليهم والضالين، أمكننا أن نلاحظ التقابل التماثلي بين الصراط المستقيم وبين صراط المنعم عليهم. على أساس أن "الصراط" الثانية بدل من الأولى. وكذا تقابل المنعم والمنعم عليهم، والغاضب والمغضوب عليهم، والمنعم عليهم والمغضوب عليهم، والمغضوب عليهم والضالون، والضال والمضل. وهي كلها إمكانيات تحليلية وتأويلية تفصل بين المستويات الدلالية وعوالمها.

تحفل الآية بمعان متقابلة: النعمة على الأولياء مقابل النعمة على الكفار، وهو كذلك تقابل ترغيب للمؤمنين وترهيب للمغضوب عليهم (اليهود) والضالين (النصارى). وتبين الضمائر الظاهرة والـمـتـرة عن بنيات تقابلية: (إياك) الدالة على الخطاب مقابل التكلم (نعبد)، ثم المخاطب المفرد مقابل جمع المتكلمين. والمعنى المستخرج من ذلك أن الداعين كثيرون، وفي كل زمان ومكان، أما من سُئل الإعانة فواحد في كل زمان وكل مكان. وهذا أقوى دليل على ألوهيته وربوبيته وعظمته وقدرته على إجابة السائلين كيفما كانت أزمته وحاجاتهم، ومطالبهم القريبة أو البعيدة، الصغيرة أو الكبيرة. وهو معنى عميق يدعو إلى التأمل

والتفكر في عظمة الخالق.

وكذا الخطاب في (أنعمت) مقابل الغياب (عليهم)، فالمخاطب مُنعم -الله تعالى- والمتكلم عنهم مُنعم عليهم أو مغضوب عليهم. وفي هذا إشارة إلى تحقق النعمة على المؤمنين وتحقيق الغضب على الكافرين. وبذلك يفتح النص على قصص الأولين واليهود والنصارى، وعلم التاريخ والنبوت، فيقدم للمؤمن الشغوف بمعرفة أسباب الإنعام على المنعم عليهم وأسباب الغضب على المغضوب عليهم مفاتيح البحث والسؤال عن قصص الأولين؛ وهو ما سيزيده اطلاعا وتمعنا في الرسائل السابقة، ومصير المؤمنين ونهايات الجاحدين، حيث يطلع قارئ القرآن الكريم على تفاصيل قصص الأنبياء والمرسلين مقدمة بشكل بديع وبليغ.

إن الفاتحة عنوان للقرآن، وأم القرآن؛ وعنوان الشيء -كما أشرنا- يختزل مضامينه في أوله.

يحقق الانتقال من ضمير إلى آخر تلويها بلاغيا: "الالتفات"، ونقلا للكلام من أسلوب إلى أسلوب، وفي ذلك تطرية لنشاط السامع، خاصة وأن السورة يرددها العابدون والمصلون كثيرا. تنطوي بنية الزمن على الحاضر والمستقبل، ويفصح عنها الفعلان (نعبد ونتعين)، وفيها امتداد الفعل من الزمن الحاضر نحو المستقبل الممتد غير المحدود إلا بعلم الله. ومهما بلغ العابدون من العمر فلن يعيشوا كل هذا الزمن اللامحدود التي يُفصح عنه الفعلان، مقابل ذلك فالإقرار بالحمد المطلق لله وحده، وحصر العبادة وطلب الإعانة منه وحده يشمل أعمار كل الداعين بسورة الفاتحة والقارئین لها، في أي زمن عاشوا وفي أي مكان كانوا. وهذا دليل قوي على عظمة هذا النص وبلاغته التي لا تبلى مع الزمن، ولا تَخْلَقُ أو تبلى على كثرة الرد، فهي تُعاد في كل يوم سبع عشرة مرة إذا اكتفينا بالصلوات المكتوبة؛ ولأن المؤمنين لا يكتفون عادة بالفرائض،

وإنما تصلى بها النوافل، وتختتم بها الأدعية، فهذا بيان أن الله تعالى عندما اختار لعباده سورة الفاتحة في الصلاة كان ذلك عن علمه الذي لا يحده حد بما في هذه السورة من المعاني الجمّة والفوائد العظيمة، فهل نحن متدبرون لها حق التدبر في كل صلاة وكل دعاء؟

من التقابل الذي يمكن ملاحظته كذلك: الصراط المستقيم: المفسّر (موضوع التفسير في النص) والمفسّر له (صراط الذين أنعمت عليهم)؛ فالصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه هو طريق المنعم عليهم من النبيّين والرسل والملائكة والصديقين والصالحين والشهداء؛ ثم يقابل ذلك مسلك المغضوب عليهم والضالين. وتبعاً لذلك تتوسع في بعض التقابلات المتفرعة المبنية على هذا التقابل: فالمنعم عليهم عارفون بالحق عاملون به مقابل المغضوب عليهم: عارفون للحق غير عاملين به، وهم اليهود (من لعنه الله وغضب عليه)<sup>(16)</sup>. ويقابل المؤمن المنعم عليهم كذلك الضالون وهم النصارى (قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)<sup>(17)</sup>، لأنهم لم يهتدوا إلى العبادة والحق من بايئهما.

ولنا أن نتأمل قليلاً في بعض التقابلات المعنوية الدقيقة ل (اهدنا)، والتي يمكننا بناؤها بناء على المنهاجية المعتمدة:

قبل الهداية يقابل بعد الهداية. الهادي يقابل المهدي. المهديون في مقابل المهتدي إليه. الضلالة تقابل الهداية. الهداية الجزئية تقابل الهداية التامة. المعلوم من الهداية قليل عند أكثر الخلق، مقابل المجهول من الهداية كثير عند أكثر الخلق. الهداية مع العمل القليل مقابل الهداية مع العمل الكثير. سؤال الهداية (اهدنا) للهداية مقابل سؤال الهداية للتثبيت. الهداية في الدنيا إلى طرق الخير مقابل الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهكذا فمن هُدي في هذه الدار إلى الطريق المستقيم، علما

(16) المائدة: 60.

(17) المائدة: 77.

وعملا، هُدي هناك إلى الصراط الموصل إلى الجنة.

يتبين من خلال التأويل التقابلي أن كل كلمة من الفاتحة الكريمة تتضمن معان غزيرة، وعلوما شتى، وبلاغات داخلية عديدة ذات قابلية كبيرة لتأويلها وتوسيع معانيها؛ فمن كان ضالا فهو يطلب الهداية الأولية، ومن كان مهديا فهو يطلب الاهتداء إلى ما يجهل من أسرار الصراط المستقيم، ومن كان مهديا عاملا فهو يطلب التثبيت والاستمرار، أو يطلب الاهتداء إلى طريق الجنة في الآخرة.

أما قوله تعالى: (أَنعَمْتَ عليهم غير المغضوب عليهم) ففيه تقابلات نحوية بديعة، وهي تفضي بنا إلى معان لطيفة: لاحظ أن الله أضاف النعمة إليه، مقابل حذف فاعل الغضب وبنائه للمجهول؛ لأن النعمة فضل وخير، والغضب انتقام، فأضاف إلى نفسه أحسن الأمرين وأفضلهما (النعم)، وخص غضبه بغيره، فالذين يغضبون لله هم ملائكته وأنبيأؤه ورسله.

ومن بلاغة حذف فاعل الغضب معنى الإشعار بالاحتقار، وتصغير شأن المغضوب عليهم. أما ذكر فاعل النعمة ففيه إكرام للمنعم عليه ورفع من شأنه. فإن قلنا: هذا الذي أكرمه الخليفة فهو أبلغ في الشناء والتعظيم من قولنا: هذا الذي أكرم.

و يمكننا عبر التأويل بالتقابلات أن نبني من (أَنعَمْتَ) تقابلا آخر وهو النعمة المطلقة (خاصة بالمؤمنين)، مقابل مطلق النعمة الذي يشمل المؤمن والكافر. كما أن التقابل واضح بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فالهدي والسعادة مترابطان ومتلازمان، والضلال والشقاء متلازمان. أما الطريق الموصل إلى الله فهو واحد: طريق الصراط المستقيم طريق الإسلام، وهو الطريق المفتوح والسالك والقريب، والذي يتسع لمرور كل من يسلكه، وهو الطريق الذي عيَّنه الله للوصول إليه والظفر بجنته ورضاه.



## خلاصات

لا شك أن تعدد الإمكانات التقابلية الظاهرة والمبينة، تبين غنى معاني هذه السورة الكريمة وبلاغتها، وعمق أسرارها؛ لهذا سماها الغزالي مفتاح الجنة، فهي فاتحة لكتاب الله وهي مفتاح الجنة لأن "أبواب الجنة ثمانية ومعاني الفاتحة ثمانية"<sup>(18)</sup>، ويقصد بهذه المعاني ما تضمنته من إشارات موجزة إلى: الذات والصفات والصراط المستقيم بشقيه: التحلية والتزكية، وذكر المعاد، ونعمة الأولياء، وغضب الأعداء.

قصدنا من الاشتغال بآلية التأويل التقابلي على سورة الفاتحة الإشارة إلى إعجاز النص القرآني وبلاغته، وهي بلاغة قد يكشفها المؤول اللغوي والنحوي والبياني، والعالم بالدين، والعارف بقصص القرآن والعقيدة، وهي فسحة للقارئ في كل زمان، وأينما كان للاقترب من أطايب هذا النص العظيم، وأثماره وبحور معانيه.

من وجوه بلاغة الخطاب القرآني قوة معانيه المتقابلة بشكل بديع ورائق، وعبر التأويل التقابلي يمكن عرض الحقائق والأحوال والمعاني الظاهرة والخفية عرضاً وافياً، بغرض الإفادة والإيضاح والتفهم. ومن ثمة تتقوى جدوى التأسيس لبلاغة تأويلية تقابلية في مجال التفسير، تعتمد المداخل اللغوية والنحوية والبلاغية والدلالية للوقوف على أسرار معاني النصوص القرآنية، التي تخدم الإنسان وتصل به إلى جنات الرضوان. والحمد لله أولاً وأخيراً.

---

(18) الغزالي، جواهر القرآن، م.م، ص 43.

## الفصل الثاني

# التقابل وبلاغة الحجاج في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي "ما يُبنى على قلوب الخلق يُضاهي ما يُبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له"

الغزالي

تقديم

لا شك أن أسلوب أبي حامد الغزالي<sup>(1)</sup> أسّر كثيرا من القراء

(1) ولد الغزالي سنة 450هـ بطوس، كان والده يغزل الصوف ويبيعه، سافر أبو حامد إلى نيسابور واجتهد في تحصيل العلم، فبرع في الجدل والمنطق والحكمة والفلسفة، وكان شديد الذكاء، عميق المعاني، غواصا على الأسرار الدقيقة.

قصد الوزير نظام الملك، وفي مجلسه ناظر الأئمة والعلماء فقهر الخصوم وهزم الجميع، فتولى التدريس بالمدرسة البغدادية، فأعجب الناس بكلامه وكمال فضله وفصاحته لسانه. فشددت إليه الرحال وضربت به الأمثال.

ترك بعد ذلك دنيا الجاه والمال، فقصد بيت الله الحرام للحج، ثم توجه إلى الشام حيث اعتكف في زاويته بالجامع الأموي. فقلل طعامه وشرابه، وبدأ في تأليف كتاب إحياء علوم الدين، مجاهدا نفسه ومكلفا إياها العبادات الشاقة، ثم رجع إلى بغداد وحدث بكتاب الإحياء، ثم عاد إلى خراسان ودرّس بالمدرسة النظامية ثم اتجه إلى طوس، واتخذ إلى جنب داره مدرسة للفقهاء. وتوفي هناك سنة 505 هـ.

من مصنفاته: المستصفى، وكتاب المنحول، وشفاء العليل، وتحصين الأدلة، وتهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، ومعيار العلم، ومشكاة الأنوار، وجواهر القرآن، والمنقذ من الضلال، والخلاصة في الفقه، والمبادئ والغايات، وكيمياء السعادة، ونصيحة الملوك، والرياسة اللدنية، ومقصد الخلاف، ومحك النظر، والاقتصاد في الاعتقاد، وشفاء العليل في القياس والتعليل، والمقاصد، وغيرها.

على مر الزمن، وجعلهم مرتبطين بكتاباته، شديدي التعلق بها، لا يكاد الواحد منهم ينهي كتابا مما أُلّف حتى يبحث عن غيره. وقد عشت تجربة هذا الأسر الجميل لمدة سنوات عديدة بدءا بكتاب "المنقذ من الضلال"، مرورا بـ "إحياء علوم الدين" و"جواهر القرآن" و"مقياس العلم"، و"مجموع رسائل الإمام الغزالي" وغيرها من الكتابات القيمة لهذا العالم الجليل؛ غير أنني مافشت أتساءل عن سر صناعة الخطاب التي يمتلكها، والبلاغة الخفية التي يسحر بها الغزالي قراءه.

وبعد مطالعات متناوبة ومتراخية في الزمن، بدأتُ أكتشف بعض أسرار جمالية الحجاج وبلاغاته، والتي يمكن اعتبارها نسقا ممتدا داخل كتاب الإحياء خاصة. وكما سنين فهي خاصة لا تقتصر على رونق الأسلوب وانتقاء العبارات، واختيار المفردات، وإنما تتجاوز ذلك لتعكس نمطا من التفكير والتصور حول الحياة والكون والإنسان والدين، وهي التي يجمعها مفهوم التقابل الذي سبق أن طبقناه وجَرَّبناه إجرائيا في تحليل العديد من النصوص والخطابات، وسنحاول في هذه المقاربة أن نقف عند تجلياته وبلاغته الحجاجية عبر نماذج تمثيلية من هذا الكتاب، دافعين بهذا المفهوم نحو الأجرأة والتحقق، فلنستمتع بجماليته في هذا المؤلف القيم.

## موضوع الاشتغال

انطلق الغزالي في تأليفه للكتاب من نسق تصوري واضح قائم على التقابلات، ولذلك رتبته على المواضيع المحورية التالية: العبادات مقابل العادات، المَهْلِكات مقابل المُنْجيات. غير أنه تقابل يلحظه القارئ بقليل من الإمعان، ولا شك أن الغزالي كان يعي جيدا حقيقة ما يصنع، وهو عرض الأمور عرضا تقابليا، لما في ذلك من علامات بيان وعناصر إيضاح.

ويمكاننا أن نبحث عن الإطار الكلي التقابلي الذي يحكم

عملية التأليف والكتابة عنده. وهنا سيتبين للقارئ المهتم بأمور التأويل وجماليات التقابل أننا لن نبعث في صحة المضامين، وانسجام المادة المقدمة مع الشريعة أو غير ذلك، فقد تطرقت العديد من الكتابات لهذا منذ القديم، وكان لأبي حامد أعداء كثيرون في المشرق والمغرب، كما كان له معجبون به كثر، وما زالوا إلى يومنا هذا؛ لذلك سنغنى هنا بتحليل الخطاب، وأسرار بلاغة الحجاج في صناعة الكتاب.

تقع هذه المقاربة على مستوى تأويلي ذي بعد تحليلي ونقدي، يسعى لبناء خطوات تأويلية لمقاربة الخطابات، وهي قائمة على آليات التقابل كما أشرنا.

### دواعي تأليف الكتاب وبنائه

يقر الغزالي في خطبة الكتاب أن من دواعي تأليفه لكتاب "الإحياء" الرد على العالم التابع للباطل على حد قوله. ومنذ افتتاح الكتاب توجه إليه بقوة ناعتا إياه بالمغلاة في لومه وتقريره، وبجحوده وحياده عن الحق. ثم نبّه إلى أن أمر هذا الدين لا يقبل التهاون، لأن "الأمر إذ والخطب جدّ، والآخرة مقبلة، والدنيا مُدبرة، والأجل قريب، والسفر بعيد، والزاد طفيف، والخطر عظيم، والطريق سد، وما سوى الخالص لله من العلم والعمل عند الناقد البصير رَدٌّ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومُكِدٌّ"<sup>(2)</sup>.

يتأسس مشروع أبي حامد الإحيائي على تجاوز المساوئ التي سقط فيها العلماء بالدين من اتباع الدنيا والاستجابة للأهواء والسلط، والبحث عن نيل المراتب أمام العامة والخاصة، بالمباهاة والجدل وطلب الغلبة. ولذلك جعل نصب عينيه إعادة العالم المنشغل بالدينيويات إلى

---

(2) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج.1، ص.2.

جادة الصواب وطلب طريق الآخرة. وهو قرار اتخذه الغزالي بكل جرأة، غير أنها جرأة العالم المفكر والمحرر البارِع وصاحب المنطق والبرهان: "أقتحم لجة البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأهجم على كل مشكلة... وأنفحص عن عقيدة كل فرقة، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة. وكان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديّني"<sup>(3)</sup>. لقد سعى الغزالي عبر مشروعه الإحيائي إلى الوقوف على حقائق الأمور وقوفا تنكشف فيه الحقائق انكشافا تاما؛ فالعلم الذي لا أمان معه ليس علما يقينيا.

وحتى لا نبعد عن موضوعنا ومقصدنا من هذه المقاربة، وهو كما أشرنا تحليل تماسك الخطاب في كتاب الإحياء، لا محاسبة الغزالي في عقائده وتصوراته أو مرجعياته أو صحة ما يقول، وإنما أن نتناول بالتحليل أسرار بلاغة القول والحجاج لديه، وجمالية التقابل في بسط المعاني والأسرار والمقاصد.

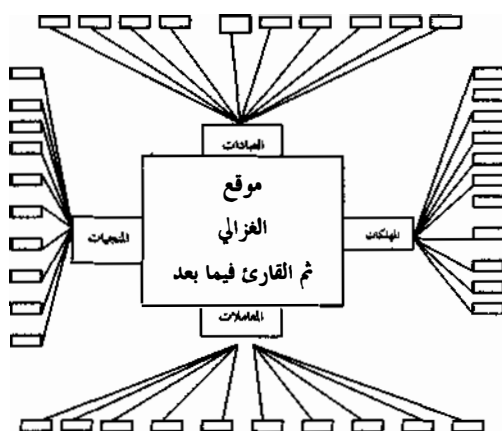
من الملامح الأولى لسمات التقابل المركزي هو طريقة التقسيم، ومنهجية التأليف التي تعكس تصورا شموليا واضحا لموضوع الكتاب؛ وهو يتوزع على أربعة أرباع: ربع العبادات مقابل ربع العادات، ربع المهلكات مقابل ربع المنجيات. وكل ربع يتكون من عشرة كتب، والأرباع الأربعة تكوّن وحدة متكاملة لروح الشريعة الإسلامية في مقاصدها وأسرارها.

إن تصور الغزالي لنسقه في التأليف ذو طابع مغلق دائري تشكل نقط الدائرة الكتب الأربعين، وداخل الدائرة في محورها يوجد العقل المدبر للتأليف والترتيب والتنسيق والحجاج. غير أن هذا الموقع الذي احتله مصنف "الإحياء" في مرحلة الكتابة ما لبث أن غادره، تاركا إياه لكل واحد منا ليخلق مع الكتب الأربعين مسافة محددة، ثم ليرى

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.1، ص. 10.

بعد ذلك في كل باب من أبواب الكتاب صورة رحلة معرفية وتأويلية للغزالي مع الشريعة وأسرارها.

وإذا جاز لنا أن نتصور مشروع كتاب الإحياء بهذا الشكل الدائري، يجوز لنا كذلك أن نتصوره في شكل مربع، على أساس أن كل ضلع يحتوي عشرة كتب بحيث يقابل ضلع العبادات ضلع العادات، وضلع المهلكات ضلع المنجيات. وإذا كانت هذه التقابلات حاضرة بشكل من الأشكال في تدبير الكاتب لأمر التأليف، فإنها تشمل على تقابلات جزئية بين الكتب فيما بينها.



يرى الغزالي في خطبة الكتاب أن مجمل المباحث والموضوعات التي تناولها سبقه إليها غيره، وإنما تمتاز مقاربتة لها بسمات فنية وموضوعية تتمثل في "حل ما عقده، وكشف ما أجملوه، وترتيب ما بددوه ونظم ما فرقوه، وإيجاز ما طوّلوه، وضبط ما قرروه. حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه، تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً..."<sup>(4)</sup>.

(4) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج. 1، ص. 3.

لقد كان الغزالي ملما بالحدود التي وصل إليها التأليف في أمور الدين، عارفا بخصائصها وميزاتها، مدركا لجوانب القصور فيها. ولذلك سعى رغم إقراره بتباين زوايا النظر، واستعصاء بعض الأمور على الأفهام إلى إثبات وجهة نظره الخاصة، وتأسيس مسافة معرفية مع علوم الدين تقوم على التبهر، والاستقصاء والاستكشاف، وتميز تحريريا بحل المعقود وكشف المجمل، وترتيب المفروق، وإيجاز المطولات وضبطها، وحذف المكررات، وإثبات المحررات، والتحقيق في الأمور الغامضة. ويرجع الغزالي تقسيم كتابه أربعة أقسام إلى كون الترتيب في التحقيق والتفهيم أمرا ضروريا، لأن علم الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة. وانطلاقا من خطة التأليف الأولية يكتشف الغزالي هذه الثنائيات ويبنى عليها مشروعه التأويلي لكثير من قضايا الشريعة، فعلم المعاملة ينقسم إلى ظاهر (أعمال الجوارح)، وباطن (أعمال القلوب)، وهي إما محمودة أو مذمومة.

وفق هذا التقسيم المحوري الذي يتصور علوم الشريعة تصورا منهجيا تقابليا، سيمير الغزالي في تأليف كتابه، وسنجد له مستويات وعناصر فرعية كثيرة فيما بعد، وكلها نابعة من تصور نسقي للموضوع ولأسلوب الكتابة، ومعرفة حقيقية بمراتب القراء والمخاطبين بالكتاب. ولهذا تجنب في كثير من الأحيان الخوض في علوم المكاشفة، لأنه من فهم الخاصة وخاصة الخاصة، وكما يقول ابن خلدون: "إنها رعاية الأدب في البواطن والظاهر، ثم لما أقبلوا على مراعاة بواطنهم، وتوغلوا في تخلص قلوبهم وحفظ أسرارهم، حصلت فيها التصفية، فأشرقت أنوار العلم الإلهامي... إنه ناشئ عن التصفية، وارتفع الحجاب فحصلت المكاشفة، ثم وقعت المشاهدة لمن تمكن في مقامات سلوكه، وبلغ الغاية من صفاء قلبه، فمت همه الكثير منهم إلى تجاوز هذه المراتب كلها إلى المشاهدة التي هي إكسير السعادة العظمى في الآخرة،

وهي النظر إلى وجه الله الكريم<sup>(5)</sup>. وقد تميز تصوف الإمام الغزالي كما تميز تصوف كما أشار إلى ذلك الكثيرون بالاعتدال، وعدم الانحراف، فلا حلول فيه ولا اتحاد ولا وحدة ولا شطح<sup>(6)</sup>.

يتأسس المشروع الإحيائي في الإحياء على علمين متقابلين/تقابل تكامل، حيث يفضي اكتمال علم المعاملة القائم على المجاهدات، والرياضات إلى علم المكاشفات وعلم البواطن الذي به تنكشف أسرار الوجود علوه وسفله، وتتضح للعالم المتصوف معاني العلوم والصنائع، وتنحل جميع الشكوك والشبه، وتنكشف له ضمائر القلوب، ومعاني المتشابهات في الشرع<sup>(7)</sup>.

وقد تطرق باحثون كثيرون قديما وحديثا إلى كتابات الغزالي، وتناولوها من مستويات عدة، ونحب أن نعيد قراءة هذه التجربة الفريدة في التأليف من زاوية تأويلية وتقابلية، لنبين الآليات المتعانة والمتساندة في خطابة الإقناعي، وفي بحثه عن الحقيقة اليقينية بعقله وقلبه معا.

من أهم الملامح المنهجية في كتاب الإحياء اعتماد العقل والاستدلال، وطريق الذوق والحال، غير أنه استدلال يتخذ طابعا تقابليا في كثير من الأحيان، ويظل طابعا حاضرا بقوة في تناول العديد من الظواهر والقضايا. ولذلك اتخذ كتابه طابعا منهجيا دقيقا، وظهر فيه الغزالي مفكرا منهجيا، وكاتباً منهجيا. غير أنه من الجدير بالذكر أن نشير إلى أن المنحى الصوفي حاضر بقوة في الكتاب، لأنه في نظره الطريق الذي يؤدي إلى المعرفة والحقيقة اليقينية. قال: "علمت يقينا

---

(5) ابن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، تقديم أبو يعرب العرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط.)، 1991، ص. 192.

(6) المهدي محمد عقيل بن علي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة، دار الحديث، القاهرة، ط. 2، 1985، ص. 332.

(7) ابن خلدون، شفاء السائل، ص. 208.



أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق... فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقبسة من نور مشكاة النبوة<sup>(8)</sup>.

## تأويلية الغزالي

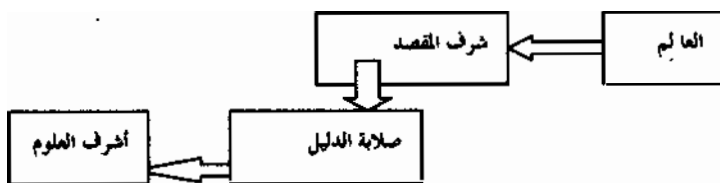
ترتكز تأويلية الغزالي للشرعية الإسلامية على التصوف، والمقصود هنا بالتأويلية هي هذا النزوع الممتد في الإحياء وغيره من كتابات الغزالي لمحاولة البحث عن معاني الشريعة وأسرارها ومقاصدها، إذ القصد بالتأويل هو الرجوع والعودة إلى أصل الشيء، والخفايا الدقيقة والمعاني والمقاصد الباطنية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية. إنها بحث عميق يحاول عن طريق العقل والاستدلال والكشف والمعرفة الذوقية إجلاء المقاصد، وإيصالها إلى الآخرين. وسبيل ذلك هو العمليات قبل النظريات؛ فالزهد يؤدي إلى تجريد القلب، وذلك مطلع الفهم، وإذا صفا الفهم فهو العلم المؤدي إلى عمل القلوب، وهو باب فهم غوامض الأسرار. قال السهروردي: "فللصوفي بكمال الزهد في الدنيا، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب، فمن الفهم علم، ومن العلم عمل، والعلم والعمل يتناوبان فيه، وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب، وعمل القلوب غير عمل القلب"<sup>(9)</sup>. بهذه الرؤية العميقة وهذا التصور الناضج باشر الغزالي تأويله للشرعية، في بحثه عن معاني الحقائق التي تحتلها والتي لا تخرج عن روح الكتاب والسنة. لأن التصوف عند أربابه يروم الخروج من كل

(8) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.1، ص.12.

(9) السهروردي، عوارف المعارف، دار إحياء التراث العربي، ملحق الإحياء، ص.50.

خُلِقَ دنيء والدخول في كل خلق سني. والصوفي كما يقول السهرودي:  
 "يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة بل للأحوال الموجودة"<sup>(10)</sup>.

لا بد للعالم في تصور الغزالي أن يقطع علائقه من الاشتغال  
 بالدنيا، لأن العلائق صارفة وشاغلة، ولا ينال العلم إلا بشرف المقاصد  
 والدليل الصلب:



إن الوجود المعرفي الذي يتأسس عليه تأليف الإحياء وجود تقابلي  
 في إدراك الغزالي، وهو تقابل ذو قطبين: قطب مُبلغ صاحبه النجاة،  
 والآخر غير مبلغ. ثم يتوسع في هذا التقابل الأساس بحثاً عن المعاني  
 الباطنية في كل أمر ديني، وهو تقابل تأويلي مستند القلب والأدلة  
 العقلية والشروحات والتفصيلات التي يفتح بها باب الفهم. والجدير  
 بالذكر - هنا - أن الغزالي لا يستعمل مفهوم التقابل في كتابه، وإنما هو  
 مستخلص من ملاحظات دقيقة لبنية الخطاب، فهو إذاً مفهوم اتخذناه  
 مدخلاً لمقاربة مظاهر الاشتغال بالتأليف عند صاحب "الإحياء".

إن التأويل بمفهومه الواسع هو كل عملية قائمة على الإدراك  
 والتمثل تهدف إلى بناء المعنى، عبر تجاوز الظواهر نحو البواطن، إنه  
 عملية مرفقة بالدليل الشرعي أو المنطقي أو النقلي. وهو عند الغزالي  
 مبني على مقاصد الشريعة وروحها<sup>(11)</sup> وجواهرها وغاياتها، ومحكوم  
 بالتصور الباطني وأدواته الإقناعية والتفهمية. وهكذا حاول الغزالي

(10) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج. 1، ص. 62.

(11) نفسه، ج. 1، ص. 213.

في كل باب استكشاف المعاني الباطنية لكل عبادة، باحثاً عن أسرارها وأسرار تشريعها، وما في ذلك من معان خفية. غير أن الكتاب لا يكتفي بهذا الجانب التأويلي، بل يقدم للقارئ مادة معرفية وفقهية غزيرة، ولا يقف عند هذا الحد بل يبحث في نهاية المادة الفقهية عن دقائق الآداب. يقول عن الزكاة: "مع أنها تصرف مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاثة معان؛ الأول..."، وقال في إخفاء الصدقة وإظهارها: "أما الإخفاء ففيه خمسة معان... أما الإظهار والتحدث ففيه معان أربعة.." (12)، "فإذا عرفت هذه المعاني..." (13)، "ورفاق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع...." (14).

تأسس خطة الغزالي على تأويل معاني العبادات التي جاءت بها الشريعة، وهو ما يمكن تسميته بعلم تأويل معاني الشريعة. ولذلك نجده يُعَنِّون كُتبه بأسرار كذا، مثل "أسرار الصوم"، قال: في الصوم معنيان: أحدهما: كَفٌّ وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يُشاهد، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد" (15).

بوسع القارئ المتمعن أن يكتشف الإضافات الهامة التي قدمها الغزالي في تأويله للشريعة، وتبيان أسرار العبادات ومعانيها ومقاصدها. وتكمن في خضم عمله نظرية شاملة للمعنى تشكلت عبر إجراءات تأويلية مختلفة، وهي التي يمكن أن تستقصيها دراسة الخطاب ومقاربة بناء المعاني في كتابه "الإحياء". كما أنه بالإمكان الوقوف عند آلياتها

(12) المصدر السابق، ج. 1، ص. 227.

(13) نفسه، ص. 228.

(14) نفسه، ص. 229.

(15) نفسه، ص. 231.

البانية للمعنى والتي تتساند فيما بينها.

ويجب أن لا يفهم من هذا أن الكتاب عبارة أن اشتغال تأويلي باطني، بل هو في أجزاء كثيرة منه كتاب تعليمي يقدم زادا معرفيا غنيا عن العبادات، وأنواعها وعناصرها الدقيقة، خاصة وأنه يضع في اعتباره المتلقي العادي الباحث عن المعرفة بالدين والشريعة. وفي ثنايا الخطاب نجد باستمرار تغييرا في وتيرة الخطاب، لإقناع المتلقي الناصر المخالف للغزالي في التصور والمذهب، لذلك فهو يتوجه إليه عبر الأدلة والحجج.

إن التصوف عند الغزالي لا يقتصر على الترقى بالنفس عبر رياضات معينة، تولد الشعور بالفناء في الحقيقة الأسمى والعرفان بها، وإنما هو تصوف تأويلي يعبر عن الحقائق الذوقية ويعبرها. فلم يقبل الغزالي من التصوف إلا ما كان متماشيا مع السنة راميا إلى الزهد وتهذيب النفس، وقد رفض الفلسفة لأنها ليست طريقا إلى اليقين. وهو ينتمي فقها إلى الشافعية، وكلاميا إلى الأشعرية، ولا يزال إلى يومنا هذا صاحب أفكار حية<sup>(16)</sup>. ويُعتبر كتاب "الإحياء" كتاب في علوم الدين، وقد فصل الكلام في أنواع المعاملات بشكل علمي وفقهي، إن الغزالي بعمله الضخم هذا "قدم زادا تأويليا للشريعة ذا قيمة عالية فيه تفصيلات لا تصدر إلا عن عالم كبير متورع ومجتهد"<sup>(17)</sup>.

لا يختلف الباحثون على القيمة النوعية والكمية التي أحدثها الغزالي في الثقافة الإسلامية، فقد أسس نموذجا معرفيا ومنهجيا واستدلاليا يعز نظيره، وظل حاضرا بقوة في الفكر العربي الإسلامي. هذا الحضور "دليل على أنه لم يكن واحدا من أعلامه البارزين، بل

(16) الفتازاني أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 3، 1979، ص. 159.

(17) نفسه، ص. 161.

برهان على أنه كان وما يزال أحد مكوناته، وإحدى سلطاته المرجعية التي لم تشخ بعد<sup>(18)</sup>.

إن تأويل الغزالي لروح الشريعة قائم على مقارنة أفعال الإنسان التي يبغى بها كماله عند الناس، وبين أفعاله التي يرتضي بها الكمال عند الخالق، وهذا إجراء حاضر على طول الكتاب. كما أنه لا يعالج الأمور على أنها مقام واحد، وإنما مجموعة من المراتب والدرجات، وهي مقارنة لا تتأتى إلا لمؤول عارف بدقائق الشريعة، له عقل عارف وقادر على إيجاد مثل هذه التقييمات وإبراز الفروقات بينها.

لقد نال الغزالي بطريقته وتصورات، وعمق معانيه وحسن تقييماته إعجاب الناس قديما وحديثا. قال عنه تاج الدين السبكي: "حجة الإسلام وحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام، جامع أشتات العلوم والمبرز في المنقول منها والمفهوم....أحمد من نيران البدائع كل ما تستطيع أيدي المجالدين مسها....جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصاييح السماء، وأفقر من الجذباء إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيف بحلاوة مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يلطخ بدم المعتدين حد نضاله حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات"<sup>(19)</sup>.

وقد أثنى على كتاب الإحياء عدد كبير من العلماء والعارفين بالله وبعلموم الدين. قال العيدروس: "اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى، بل كل فضيلة باعتبار حيثياتها لا تُتقصى، جمع الناس مناقبه فقصرها وما

---

(18) محمد عابد الجابري، "مكونات فكر الغزالي" ضمن كتاب: "أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره وتأثيره"، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1988، ص.59.

(19) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، المطبعة الحنينة، مصر (د.ت)، ج.4، ص.101.

قصورا، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا، وعز من أفرادها فيما علمت بتأليف، وهي جديرة بالتصنيف، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق، واستخرج جواهر المعاني ثم لم يرض إلا بكبارها...<sup>(20)</sup>. وقال فيه الإمام أبو الفضل العراقي: "إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومزج معانيهما في أحسن المواطن..."<sup>(21)</sup>.

وقال عبد الواحد الفارسي: "إنه من التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها"<sup>(22)</sup>. ويلخص كل ذلك قول الشيخ أبو محمد الكارزوني: "لو مُحيَت جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء"<sup>(23)</sup>.

لقد أدرك كثير من القدماء أن كتاب "الإحياء" عبارة عن توضيح وشرح للشريعة الإسلامية في كافة مناحيها. قال عبد الله العيدروس: "عليكم يا إخواني بمتابعة الكتاب والسنة، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية...."<sup>(24)</sup>. إن في كتاب "الإحياء" سرا عجبيا يجذب القراء، حتى قالوا: لو قَلَبَ أوراق الإحياء كافر لأسلم. والحال أن دورنا اليوم ليس هو تكرير أقوال السلف، وتجميعها، وإنما البحث عن بعض أسرار جاذبية هذا الكتاب وتأثيره القوي ليس في الأفراد وإعجابهم به، بل على مستوى الثقافة العربية الإسلامية ككل.

بلغ الغزالي مرتبة كبيرة في العلم، حتى شدت إليه الرحال، وأذعنت

---

(20) عبد القادر العيدروس، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، ملحق إحياء علوم الدين،

م.م، ص.3.

(21) نفسه، ص.5.

(22) نفسه، ص.5.

(23) نفسه، ص.5.

(24) نفسه، ص.5.

له الرجال، لكنه طرح الدنيا وطلب الآخرة. قال بعض العلماء: رأيت الغزالي رضي الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويده عكاز وركوة، فقلت له: يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا؟ فنظر إلي شزرا وقال: لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شمس الوصل:

تركتُ هوى ليلى وسعدى بمنزل

وعُذت إلى مصحوب أول منزل

ونادتنى الأشواق مهلا فهذه

منازل من تهوى رويدك فانزل<sup>(25)</sup>

حقق الغزالي في "الإحياء" تجربة فريدة في التأليف، تعكس مستوى الرقي المعرفي والمنهجي الذي تحوّل عنده، وكل ذلك ثمرة تحولات معرفية وصراعات فكرية ومذهبية عرفها عصره، حيث استطاع بعد الاطلاع عليها وتمحيصها اختيار الطريق الذي يراه صائبا؛ ولذلك فالقيمة الحقيقية للإحياء لا تنحصر في المواد المعرفية والفقهية المعروضة فيه، وإنما كذلك في الرؤية التي تحكمت في صياغته، والحس المنهجي والدوقي الذي خضعت له، وكذا المستوى التنظيمي والتبقي الذي أتبعه في كل أبواب الكتاب، عبر معالجة القضايا والموضوعات على شكل مراتب ودرجات. وهو اشتغال بالتأليف لا يتأتى إلا لمؤول عارف بالشرعة، قادر على إيجاد مثل هذه التقسيمات وإبراز الفروق بينها.

إن قارئ كتاب الإحياء يجده صالحا لكل زمان ومكان، فهو وإن كان يتوجه في محافل منه إلى الذين عايشوا الغزالي وخالفوه في المذهب والتصور، إلا أنه في عمومهم موجه إلى كل القراء. ومن ثمة يجد نفسه معنيا بكل كلمة في الكتاب، وذلك لأن المؤلف استند إلى

(25) المصدر السابق، ص. 12.

روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها، وهي صالحة للناس في كل زمان ومكان. كما أن تحليل النفس البشرية دقيق للغاية، وهو ما يمكن كل أحد من معرفة نفسه ومعرفة غيره.

## الدنيا مزرعة الآخرة

من الواضح أن الغزالي تحكمت فيه مرجعيته الصوفية، وإيمانه بأن طريق التصوف هي أفضل الطرق في تحصيل المعرفة على الإطلاق، وهو النسق الخفي والظاهر الذي وظفه الغزالي لإحياء علوم الدين وتجديدها تجديدا يلائم العصر. ونقدم بعض المقتطفات الممثلة لهذا التحكم، وإلا فإنها حاضرة بقوة في كل فقرات الكتاب: "بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك، فصار ذلك حجابا بينك وبينها، فلا تحتاج إلا أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب"<sup>(26)</sup>. وفي باب الزهد نقرأ "ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه، فيكون مسخرا مثل البهيمة، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذاً بمخفقه إلى حيث يريد ويهوى؛ فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا، وينال الربوبية بأن يصير عبدا"<sup>(27)</sup>.

إن المشروع التأويلي للغزالي قائم على أن "الدنيا مزرعة الآخرة"، فهي المحور الذي تؤول على ضوئه كل القضايا التي يعالجها، وأن "ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات

(26) الإحياء، م.م، ج.4، ص.77.

(27) نفسه، ج.4، ص.79.



له<sup>(28)</sup>. وسنحاول فيما يلي تتبع جوانب من اشتغال الغزالي اعتمادا على إبراز التقابلات والتمثيلات.

## التقابل وصناعة المثال

يعتبر التقابل التمثيلي من العناصر الاستدلالية البليغة التي ضمنت لكتابات الغزالي قوة حجاجية وإقناعية، وهي خطة نهجها الغزالي على طول مؤلفه، وفي غيره من الكتب. ولعل الذي يشد القارئ إلى تأليفاته هو تصور العالم الدنيوي والأخروي بهذا الشكل المتقابل، وهو دليل على إدراك وتمثل حقيقي للمعاني والأفكار، بل لعله كان مدركا غاية الإدراك أن تقديم تصوراته يجب أن يكون واضحا وجليا ومقنعا، فأدرك بسعة اطلاعه على علوم المنطق وعلم الكلام والفلسفة أن الوسيلة الأمثل لذلك هي تأسيس مشروعه على أساس تقابلي. وهو - بالطبع - لا يصرح بذلك لكن القارئ المتمعن يدرك أن وراء هذا الخطاب المثير والجذاب سرا ما، أداة ما لإيصال المعاني. ولقد تناولت كتابات عديدة مناحي فكر الغزالي، غير أنني لم أجد من بينها من حاول اكتشاف سر صناعة الخطاب عنده، وسنقدم نماذج تمثيلية على ما نقول. يقول:

"في القلب جنود، جند يُرى بالأبصار، وجند لا يُرى إلا بالبصائر، ويتمثل الجند المشاهد في اليد والرجل واللسان والعين، فهي كلها مسخرة للملك الذي هو القلب، وهو يفتقر لها من أجل سفره الذي خلق من أجله، وهو السفر إلى الله تعالى وقطع المنزل الأدنى (الدنيا) لأجل الوصول للمنزل الأقصى (الآخرة)، ولا بد له في سفره من البدن، والبدن مفتقر إلى الغذاء وغيره من أسباب البقاء، ولذلك افتقر هذا البدن إلى جندين ظاهر: الأعضاء الجالبة للغذاء كاليد، وباطن: وهو الشهوة؛ فالأعضاء آلات الشهوات، ولدفع المهلكات افتقر البدن إلى جندين

(28) الإحياء، م.م، ج. 3، ص 288.

ظاهر: الأعضاء الدافعة للأذى: اليد والرجل....وباطن وهو الغضب الذي ينتقم من عدو البدن<sup>(29)</sup>.

يسير الغزالي على هذا المنوال التوضيحي الذي يقوم على التصور التقابلي للعوالم والحالات، وهو تقابل تمثيلي وتعالقي حيث ترتبط الأشياء فيما بينها ارتباطاً سببياً:

|                                 |         |                                 |
|---------------------------------|---------|---------------------------------|
| الملك                           | (مقابل) | القلب                           |
| الأعضاء المساعدة                | (مقابل) | الجنود                          |
| السفر                           | (مقابل) | العبادة                         |
| السفر إلى الآخرة                | (مقابل) | سفر الدنيا                      |
| دفع المضار                      | (مقابل) | جلب المنافع                     |
| السفر يحتاج السفينة             | (مقابل) | العبادة تحتاج البدن             |
| جند باطن                        | (مقابل) | جند ظاهر                        |
| القلب مخدوم (ملك)               | (مقابل) | الأعضاء خادمة                   |
| (جند ظاهر وخفي (الأعضاء والغضب) | (مقابل) | جند ظاهر وخفي (الأعضاء والشهوة) |
| الجاسوس                         | (مقابل) | الإدراك                         |

يسير التأليف في كثير من الأحيان وفق هذا المنطق التقابلي التمثيلي بهدف التوضيح والفهم: "ومقصود مثل هذا الكتاب أن يتفهم به الأقوياء والفحول من العلماء، لكننا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة ليقرب ذلك من أفهامهم<sup>(30)</sup>.

من وظائف التقابل التمثيلي تعضيد خطة المؤلف في التأثير والإقناع، وتقريب المعاني من الأفهام بضروب من الأمثلة، لا يكفي

(29) المصدر السابق، ص.5.

(30) نفسه، ص.6.

المؤلف بمثال واحد في كثير من الأحيان، وإنما يراكم الأمثلة في الموضوع الواحد لتتضح المعاني والتقابلات. ومن ذلك التمثيل التقابلي: (النفس مقابل الملك)، (البدن مقابل المدينة)، (الجوارح مقابل الصناعات والعمال)، (القوة العقلية مقابل الوزير الناصح)، (الشهوة مقابل العبد السيء)، (الغضب مقابل صاحب الشرطة)، (العبد مقابل كذاب خداع)، (العبد ظاهره النصيحة مقابل العبد باطنه الشر الهائل والسسم القاتل)، (منازعة العبد للوزير في أمور الحكم وحبس صاحب الشرطة له مقابل تحكم الشهوة في صاحبها حتى تتأدب بالعقل). والمقطع التالي ناطق بما نقول: "مثلُ نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك في مدينته ومملكته فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناعات والعمال، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل. والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة. والحمية والغضب له كصاحب الشرطة، والعبد الجالب للميرة كذاب مكار مخادع خبيث، يتمثل بصورة الناصح تحت نصحه الشر الهائل والسسم القاتل، وديده وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدابيراته بوزيره مستشيرا له ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلا بإشارته في أن الصواب في نقيض رأيه، أدبه صاحب شرطته وسامه لوزيره، وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأنصاره، حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا، ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا، استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه، فهكذا النفس متى استعانت بالعقل، وأدبت بحية الغضب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلواءه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب عليها وتقبيح مقتضياته، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها..."<sup>(31)</sup>

(31) الإحياء، ج. 3، ص. 6-7.

يتبين إذاً أن التقابل التمثيلي أداة استدلالية وتأويلية، فهو استدلال للإقناع والتفهم، وهو تأويل لما جاءت به الشريعة الإسلامية، وما ورد في النصوص القرآنية، خاصة وأن الغزالي ينطلق من آيات قرآنية أو يعضد بها المعاني والأسرار التي يعيد بناءها وتأويلها. قال: "اعلم أن البدن كالمدينة والعقل -أعني المدرك- من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته، والنفس الأمانة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كحقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يجب حمد أثره إذا عاد إلى الحضرة كما قال تعالى: ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾، وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه الله تعالى<sup>(32)</sup>.

ينتقل التقابل التمثيلي إلى جهة أخرى من المعنى وهو البدن المهدد بعدو الشهوات، فيشبهه بالمدينة: (البدن مقابل المدينة)، (العقل مقابل الملك)، (القوى المدركة مقابل الجنود والأعوان)، (الأعضاء مقابل الرعية)، (الشهوة والغضب مقابل العدو المهاجم)، (مجاهدة العدو مقابل إهمال الثغر)، (الحفاظ على البدن مقابل الحفاظ على المدينة)، (سلامة العاقبة الدنيوية مقابل سلامة العاقبة الأخروية).

أبرزنا في مناسبات سابقة<sup>(33)</sup> كيف أن القول الشعري يتأسس على التقابل في صناعته وجوهره، ونحاول أن نبين هنا كيف أنه مكون

(32) المصدر نفسه، ج. 3، ص. 7.

(33) انظر محمد بازي، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم بيروت، ومنشورات الاختلاف والجزائر، الطبعة 1، 2010. وكذا التقابل في الخطاب الشعري في هذا الكتاب: مراثية مالك بن الربيع، والتقابل في الشعر الحديث نموذج عمر أبو ريشة.

جوهرى تتأسس عليه الخطابات الفكرية والتأويلية باعتباره نسقا تعبيريا يظهر ويختفي، يحضر أو يغيب، لكنه يمكن التواصل وبناء المعاني. وبما أن أنظمة التواصل والاستدلال تنبني عليه، فمن اللازم إيلاء الأهمية التي يستحقها حتى تتأتى معرفة أسرارهِ وجمالياته، سواء على مستوى صناعة النصوص الأدبية والخطابات الفكرية والتحليلية، أو على مستوى تلقيها وتأويلها، وهو ما يدعمنا فيه الغزالي بقوله: "الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها"<sup>(34)</sup>.

وإذا كان التقابل عنصرا تأليفيا خفيا يحضر بقوة في الإحياء فإننا نقدم مثالا آخر وهو التقابل الأخلاقي: الطبيعة الشيطانية مقابل الطبيعة الملائكية، ففي الطبيعة الشيطانية يكون العقل مملوكا والقلب مرآة يعلوها صدى المعاصي: الرين، وأما في الطبيعة الملائكية فيكون العقل مالكا والقلب صقيل بنور الطاعات. ومن صفات الطبيعة الشيطانية: الخبث، الوقاحة، الرياء، المجانة، العبث، الحرص، الجشع، الملق، الحسد، التهور، الشماتة، البذخ، الصلف، التكبر، الاستهزاء، المكر... أما صفات الطبيعة الملائكية: العلم والشجاعة والحكمة، والكرم، والعفة، وضبط النفس، والحلم، والزهد، العفو، والورع، وحسن الهيئة، والثبات..

يشرح الغزالي الشريعة ويؤولها حسب فهمه، لكنه يقدمها للآخرين عبر تقابلات موضحة؛ ولو بحثنا عن سر هذه التقسيمات الثنائية نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم والأحاديث النبوية، فقد بينت أن حال الإنسان في الدنيا والآخرة مبني بهذا الشكل الثنائي: الإيمان أو الكفر، السعادة والشقاء الدنيويان أو السعادة والشقاء الأخرويان. والغزالي يسير على هدى الشريعة في تقسيمها لصفات الإنسان ومصيره. وهكذا

(34) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج.3، ص.27.

يحلل ميولات الإنسان إما إلى الخير أو الشر تحليلًا تقابليًا؛ فمحركات القلوب هي الخواطر: الأفكار والأذكار، فمنها ما يدعو إلى الخير ومنها ما يدعو إلى الشر، الخاطر المحمود يسمى إلهامًا، والخاطر المذموم يسمى وسواسًا، والسبب الداعي إلى الخير يسمى ملكًا، والداعي إلى الشر يسمى شيطانًا، وتبعًا لذلك تسير العلاقات بمنطق تقابلي وسببي كالتالي:

| خواطر الإنسان           |         |                           |
|-------------------------|---------|---------------------------|
| الإلهام                 | (مقابل) | الوسواس                   |
| الملك                   | (مقابل) | الشيطان                   |
| اللطف                   | (مقابل) | الإغواء                   |
| هَمٌّ من الله           | (مقابل) | هَمٌّ من الشيطان          |
| القلب مهبط الملائكة     | (مقابل) | الهوى مرعى الشيطان        |
| غلبة الآخرة على القلب   | (مقابل) | غلبة الدنيا على القلب     |
| ذكر الله مطرح الملائكة  | (مقابل) | ذكر الشهوات مطرح الشياطين |
| عبيد الله               | (مقابل) | عبيد الهوى                |
| الهم: أهو لمة من الملك؟ | (مقابل) | أم لمة من الشيطان؟        |

والشيطان عدو لا يغفل ولا دَفَع له إلا بالحراسة والمجاهدة. ومثال القلب مثل الحصن، وحراسة الحصن تكمن في حفظ أبوابه وهي صفات الإنسان من شهوة وغضب، فإذا غضب الإنسان لعب به الشيطان كما يلعب الصبي بالكرة. ومن أبوابه الحسد والحرص والجشع والطمع وحب التزين المفرط، والعجلة والمال والدواب.

سعى الغزالي في تأويلته للشرعية إلى بناء المعاني المتعلقة بالقضية التي يتناولها، فعمله إلى جانب كونه يقدم زاداً معرفياً وفقهياً موسعاً، فهو يسعى للإحاطة بمعاني الشريعة وأسرار عباداتها. وفيما يتعلق بالمهلكات والمنجيات يتوسل بعلم الآخرة الذي هو منطلقه ومقصوده، ومن ثمة فهو لا يشغل نفسه بالمعاني اللغوية للشكر أو الصبر أو غيرها، لأن ذلك في تصوره "ليس من علم الآخرة في شيء"<sup>(35)</sup>، ولأن مقصوده هو التفهيم والإفهام، والاستدلال على صحة ما يبينه من معانٍ ويتكشفه من أسرار، فهو معني بضرب المثال: "والفهم قاصر عن درك السر فيه، فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه"<sup>(36)</sup>. والمثال -كما ذكرنا- نوع تقابل، لأنه تواجه استدلالي بين المشبه والمشبّه به، وهي آلية استدلالية وحجاجية قوية انتفع بها الغزالي في صناعة بلاغة الخطاب، ونفع بها غيره.

يستند الغزالي إذاً على أمر خارجي عن الألفاظ، متجاوزاً تناول المعجمي لمعاني ألفاظ العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات بأنواعها المختلفة. ذلك الأمر الكاشف عن الأسرار المعنوية هو النور الرباني، فيه يتأتى الوصول إلى الحقائق والأسرار. قال: "فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ما هي عليه، ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبإلتخصيص أخرى"<sup>(37)</sup>.

إن عبارة "الدنيا مزرعة الآخرة" التي يرددها الغزالي باستمرار، نفهم منها مقابلهما وهو أن الآخرة حصاد لما زُرِعَ في الدنيا. ونجد تقابلاً

(35) الإحياء، ج. 4، ص. 85.

(36) نفسه، ص. 85.

(37) نفسه، ص. 106.

آخر في الموضوع نفسه، وهو أن الدنيا مرآة الآخرة، عالم الشهادة مقابل عالم الغيب، وهي أوضح تجل للتقابل الذي هو نوع مواجهة، بل نوع من الترائي الذي تضمنه المرأة؛ "كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة"<sup>(38)</sup>.

ونقدم مثالا آخر للتقابل التمثيلي الذي تتأسس عليه بلاغة الخطاب عند الغزالي، وهو مثال الدنيا: "ما خُلِقَت الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتُخَدَّع، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزين للشباب الشبق الغني، حتى إذا تقيدت بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه، فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره، فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها، ولا ينبغي أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها، فإن المقبل عليه أيضا متألم بالصبر عليها، وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها، وتألم المعرض يفضي إلى لذة في الآخرة، وتألم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة"<sup>(39)</sup>.

الدنيا مثالها امرأة جميلة مثيرة تجذب المغترين بجمالها حتى إذا وقعوا في شباكها انصرف عنهم وعذبتهم، وهم يطمحون إلى تحصيل لذة، وإذا تأتى ذلك فإنه لا يكتمل، فيعتوره النقص والألم، ونتاج الألم الدنيوي ألم أخروي.

بوسعنا أن نتوقف عند خاصية التقابل التمثيلي التي اعتمد عليها الغزالي في كتاباته، من خلال هذا المقطع السابق:

(38) المصدر نفسه، ص. 102.

(39) نفسه، ص. 126.



|                                       |         |  |
|---------------------------------------|---------|--|
| الدنيا                                | (مقابل) | امرأة                                      |
| العقول الناقصة مغترة بالدنيا          | (مقابل) | العقول الكاملة لا تغتر بالدنيا             |
| الدنيا غاوية                          | (مقابل) | العقول الناقصة واقعة في الغواية            |
| ظاهر الدنيا الرغبة والانقياد          | (مقابل) | باطنها الاستعصاء والإعراض                  |
| العقل الناقص                          | (مقابل) | شاب شبق                                    |
| الدنيا في راحة                        | (مقابل) | الإنسان المغتر بها في عذاب دائم            |
| إذا غص الشاب البصر سلم                | (مقابل) | إذا لم يغلق أبواب الفتنة تألم<br>طول حياته |
| أرباب الدنيا                          | (مقابل) | أرباب الآخرة                               |
| المعرض عن الدنيا متألم<br>بالصبر عنها | (مقابل) | المقبل عليها متألم بالصبر عليها            |
| تألم المعرض نتاجه اللذة في<br>الآخرة  | (مقابل) | تألم المقبل نتاجه تألم الآخرة              |

إن "إحياء" الغزالي يكشف عن أنواع متباينة من المعرفة، فلذلك يهتم بكل أصناف المتلقين، والبيان عنده إما أن يكون على سبيل التساهل<sup>(40)</sup>، عبر الخطاب الموجه إلى عامة الناس لقصور أفهامهم، والغرض منه الإصلاح. وأما النوع الثاني فهو الذي يتوجه به إلى أهل العلم والمستبصرين بحقائق الأمور عن طريق الكشف والإيضاح، ومن ثمة فهو يعتمد خطة التفهيم. وقد وردت كلمة "بيان" كثيرا في كتابه، وهو يقصد بها الإيضاح والتبيين والتفهيم، وإبراز الأمر على حقيقته وحاله، وهو البيان اشتغال ذهني يقوم على عمليات إدراكية وفكرية تأويلية تهدف إلى إرجاع معاني الشريعة إلى أصلها، وإظهار أسرارها

(40) الإحياء، ج. 4، ص. 136.

وما انغلق من معانيها، وذلك في إطار مشروع تأويلي ومنهجي متكامل، إذ إن التأويل في الأصل هو إرجاع المعاني إلى أولها.

يرتكز تأويل الغزالي للشريعة على البحث عن معاني وأسرار الأطر الكبرى التي قسم إليها كتابه، ثم تتفرع عن كل إطار مجموعة من العناصر التي يخضعها بدورها لسؤال المعنى، وبيان وتبيين الأسرار الدقيقة، متبعا في ذلك نسقا منهجيا وتأليفيا دقيقا يسير عليه. قال: "الشرط الثاني من الكتاب في الخوف وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته، وبيان أقسام المخاوف، وبيان الأفضل من الخوف والرجاء، وبيان دواء الخوف، وبيان معنى سوء الخاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم"<sup>(41)</sup>.

ثم يتناول المؤلف في تأويله للفرعيات كل مسألة على حدة تبعا للمقامات التالية: العلم والحال والعمل؛ فحال الخوف يتنظم من علم وحال وعمل، وفي تحديد كل مستوى من مستويات التناول يقابل الغزالي بين الحالة موضوع التبيين والتوضيح وبين مقابل تمثيلي يعين على إجلاء المسألة وتوضيحها، وهي خطة بيانية محورية في التأليف والاستدلال عنده، فهو يؤمن غاية الإيمان بدور المبالاة وأثره، وغالبا ما يختار من المبالاة ما يكون قريبا واضحا. يقول في باب الخوف: "كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويُجَوِّزُ العفو والإفلات، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله، وهو تفاحش جنائته، وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحثه على الانتقام، خاليا عنم يتشفع إليه في حقه... وقد يكون الخوف لا عن سبب جنابة قارفها الخائف، بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالاب سبع، فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته... فالسبب الباعث المثير لإحراق

(41) الإحياء، ج 4، ص 155.

القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف... فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعاً...<sup>(42)</sup>

## المثال ومثاله

يبتدئ الغزالي في خطته الإقناعية والاستدلالية من المعرفات والمعلومات عند المتلقين، فيقدم المثال الواضح البين الذي لا ينكره عقل أو عُرف، ثم يؤسس عليه مثاله الذي يسعى إلى تثبيته في قلب المخاطبين. إن المثال ومثاله، أو الحجة المركبة تركيباً تقابلياً خاصة ملازمة لتناول الشريعة في "الإحياء"، وهو تناول تأويلي يقيم المعاني والمقاصد والغايات ويكشف الأسرار والبواطن. وهكذا فالمثال الأول -وهو يتعلق بتوضيح مقام العلم بأسباب الخوف- ينطلق من توضيح النظريات، ويبني عليها ما يستتبع من الأحوال الواقية والمقامات المتعلقة بالخوف من الله تعالى، أي إنه انتقال من العموميات: حال الدنيا وأهلها (الأحوال الشاهدة) ثم ينتقل إلى حال العبد من ربه (الأحوال الغائبة).

الجاني على ملك يخاف العقاب (مقابل) الجاني للمعاصي يخاف الله. الخوف من الأسد لصفة السبعية فيه (مقابل) الخوف من الله لامتلاك الله تعالى القدرة على إهلاك الخلق لو أراد. ثم الخوف من المخوف لصفة قائمة فيه -الإحراق أو الإغراق- (مقابل) الخوف من الله لقدرته على كل ذلك.

إن خاصية التقابل التي يتأسس عليها العالم الذي نعيش فيه، يجد عند الغزالي طريقاً صحيحة إلى توظيفه واستغلاله بشكل منهجي قوي،

(42) المصدر نفسه، ج. 4، ص. 155.

وأحيانا يأتي بشكل مركب: (المسألة/ مثالها). ثم يأتي بعد ذلك نوع آخر من التقابل وهو الاستشهادات القرآنية والحديثية، فهي نصوص تقابل قضايا أو معانٍ تَمَّ بناؤها واستخراجها، وهي خطة تقابلية حاضرة على طول الكتاب.

وهكذا فالمشروع التأويلي للشريعة عند الغزالي يتأسس على بنية من المتقابلات، القائمة في بنائها على التأمل والاعتبار، أو على الاقتباس من الآيات والأخبار. ومن يقرأ ما تضمنه "الإحياء" يجد أنه صالح لكل زمان ومكان، فهو لم يؤلَّف ليقرأ في القرن الخامس أو السادس وحدهما، وإنما يجد كل قارئ أنه معني بكل كلمة فيه، وذلك لأنه استند إلى روح الشريعة ومبادئها ومقاصدها الصالحة لكل زمان ومكان. كما أن تحليل الغزالي للنفس البشرية دقيق للغاية، وما من قارئ يطلع على مضامين الكتاب إلا وسيجد أنه معني بالخطاب في كل مسألة، بل إن الكتاب يمكنه من معرفة نفسه بشكل جيد. وبما أن التأويل هو بحث عن المعنى، فالكتاب يظل على طوله كتاب استكشافا لمعاني الشريعة الخفية وأسرارها العميقة.

لقد برع الغزالي في صناعة أمثله التبيينية لإدراكه أهميتها في الإقناع والتأثير، وهو يتحدث عن القضية ثم يأتي بمقابلها ومثالها، أو يأتي بالمشال أولا، ويردِّفه بالمثل له كما في الفقرة التالية: "وبالجملة فمن وقعت سفينته من لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة، واضطربت عليه الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة، وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر"<sup>(43)</sup>. إن استخدام المشال، ومقابلة الأحوال فيما بينها من الخصائص التأليفية ذات الحضور القوي عند الغزالي، والمثالات التي يقدمها مألوفة عند المتلقي وقرينة إليه، بل في منتهى الإدراك.

(43) الإحياء، ج 4، ص 178.

## تساند الآليات التأويلية

تعاون في منهجية الغزالي التأليفية مجموعة من الأدوات والآليات والعلوم، وإن حضر بعضها بشكل أقوى من الآخر؛ فالتمعن في تشكلات الخطاب يجد أن العلوم والمرجعيات تشتغل بشكل تساندي، وتدفع كلها نحو مقصد مركزي، وهو تغيير وضع المتلقي نحو الكمال الذي ارتضته الشريعة له، وتبصيره بأحوال نفسه، ودفعه دفعا إلى مجاهدتها، وفتح تصوراتهِ على عالم الآخرة، ولذلك فالعلوم في الإحياء يكمل بعضها بعضاً.

وهكذا تتداخل في ثنايا الخطاب الاستدلالي في الإحياء النصوص القرآنية والحديثية، وأقوال الصحابة والعلماء والعارفين، والأمثال والأشعار والروايات والفقه والمنطق واللغة والإشارات الصوفية والوقائع والأخبار. يخضع الغزالي المادة الاستدلالية التي يدخلها في نسيج تأليفه للانتقاء والاختيار، فحضورها مبرر بقوتها الإقناعية والتأثيرية، وكذا المناسبة لمقام الحديث وموضوع التأليف. وهو ما يضيف على الأسلوب طابع التنوع والغنى. وبقدر ما يختار القارئ المادة المعرفية التي تناسب التصور الذي يدافع عنه: الدنيا مزرعة الآخرة، فإنه يشرك هذا القارئ، ويحاوره (اعلم أن... قيل... فكما أن... لعلك تقول... فإن قلت...) وهي إستراتيجية تستحضر القارئ بمختلف مراتبه المعرفية وتوجهاته العقدية والمذهبية لإقناعه وبث الروح الأخروية فيه.

كما أن الكتاب ينهض على مجموعة من الخصائص المنهجية الدقيقة التي تبين عن رسوخ قدمه في التأليف، فتناوله لموضوع معين يخضع للتقديم والشرح والتصنيف والتحليل والاستنتاج. وتتخلل ذلك عناصر أخرى مدعمة مثل الحوار، والاستطرادات الذكية والمشوقة، وحسن التقسيم، وجمال اللغة والأسلوب، ووضوح الفكرة والتعبير عنها بلغة لا تعقيد فيها، وأسلوب السخرية أحيانا، وتكرير الفكرة، والإكثار

من التمثيلات، وإبراز المظاهر المتقابلة في الكون والحياة والدين. وهو في كل ذلك موجه بمنهجه الصوفي ومقصده الكبير وهو إعداد الفرد إعدادا كاملا، وإصلاح المجتمع إصلاحا بنويا، والوصول بهما إلى إدراك حقائق الوجود والحياة والموت والدنيا والآخرة ومصير كل واحد: الجنة أو النار، إذ السعادة في تصوره منوطة بحرفين: أحدهما أن يعرف العبد الله تعالى، والثاني أن يعرف خطابه إليه فيعمل به، وهذه خلال حاضرة في هذا الكتاب، ومسدودة بأفقال التحقيق.

إن تأويلية الغزالي للشيعة قائمة على مقابلة أفعال الإنسان التي ينبغي بها كماله عند الناس، وبين أفعاله التي يرتضي بها الكمال عند الخالق، وهو نفس في التأليف يصدر عنه الغزالي في تأويله لعدد من الأحوال. وتظل المقاربة بالتقابل التمثيلي من أبرز السمات التحليلية والتأويلية حضورا. يقول في باب الرياء: "ومن جلس بين يدي إنسان مرتبعا أو متكئا، فدخل غلامه فاستوى فأحسن الجلسة كان ذلك منه تقدما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لا محالة، وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملاء دون الخلوة"<sup>(44)</sup>. لقد حرص الغزالي على الإيضاح والتفهم والتأثير، وقد سمحت له ثقافته المنطقية ومرجعياته المعرفية المتنوعة بتناول كل باب من أبواب الكتاب تناولا تأويليا دقيقا قائما على ثنائية الظاهر والباطن، ومعالجة الأسباب الظاهرة والخفية لكل مسألة.

غير أن استدلالات الغزالي بالحديث الشريف لم يخضعها للتمحيص، ولذلك انتقده المتقنون باعتماده أحاديث موضوعية، وقد اعتذر عن ذلك قائلا إن بضاعته في هذا العلم مزجاة. ولذلك قام الإمام زين الدين العراقي بتخريج الأحاديث الواردة في الإحياء على هامشه سماه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء

(44) الإحياء، ح. 3، ص. 305.

من الأخبار<sup>(45)</sup>.

ورغم طول مدة تأليف الكتاب التي تقدر بعشر سنوات، وما قد يعتري العمل التألفي فيها من توقفات وانقطاعات، أو تغير في التصورات الكلية أو الجزئية فإن تأويل الشريعة في الكتاب يظل متماسكا ومتلاحما، لا تعارض فيه ولا تناقض مع المقصد من تأليفه أو مرجعياته. والكتاب كله ينم عن ذوق كبير، وامتلاك واسع لأدوات المعرفة ومناهج التأليف، من حيث العمق والانتظام والبلوغ إلى مقاصد الكتابة وإلى قلوب القراء.

والحقيقة التي لا بد من الإقرار بها أن الغزالي استطاع أن يغير فلسفة الكثيرين ونظرتهم إلى الكون والحياة، وأن يدمجهم في أفقه المعرفي. والأهم من ذلك أن كتابه يقدم توجهها حقيقيا للتعامل مع الحياة والناس ومظاهر الكون عاملا باطنيا ينظر في اللب، حيث يبين أن كثيرا من المظاهر التي تغتر بها القلوب خداعة في اللب. وهو تصور معرفي يعيد النظر في العبادات والمعاملات والمهلكات والمنجيات؛ نظرة عميقة يخرج منها القارئ بتصور واضح، ويعود ذلك إلى أن الغزالي يمتلك قوة معرفية ومنهجية يشد بها القارئ، فهو يفيد ويمتعه، ويغير طريقة تعامله مع القيم والأخلاق ومظاهر الكون من حوله.

### مثال الدنيا

من الأمثلة التي تفيدنا في هذا المقام حول علاقة التأويل بالمثال المقابل، مثال الدنيا بالمرأة الفاتنة الغاوية. قال في مقدمة باب الزهد، وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات: "المجد لله الذي تسبح له الرمال، وتسجد له الضلال، وتندكدك من هيئته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال، وعصم

(45) انظر هوامش الإحياء.

قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والأصال، ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال. وتمثل لمظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عُجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال، وهي متلففة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاعتيال، ثم لا تجترئ معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال، فلما انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال، زهدوا فيها زهد المبغض لها، فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه همهم على حضرة الجلال، واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل<sup>(46)</sup>.

يسعى الغزالي إلى التأثير في المتلقي بجميع الوسائل المتاحة له بما فيها بلاغة القول، ولعل العارف بجماليات التعبير العربي سيتبين له دقة التعبير، ووضوح العبارة، واعتماد التحسين البديعي من سجع وجناس، وألوان التقابل، والتشبيه، والتمثيل، ويسر التعبير عن مقاصده وإيجازها، إلى جانب تحكم نزوعه التصوفي العميق الذي يؤثر معالجته لأي مسألة دينية.

أسس الغزالي تأويليته للشرعية في كثير من المقامات على المثال، فهو عدته، واشتغاله التأويلي ذهاب بالمعنى إلى مآله أو أوله بعد إذابته

(46) الإحياء، ج. 4، ص. 189.



في صلب تصوراته، أما التمثيل فهو تصوير أو توصيف شيء بمقابل مماثل، فيتطابقا مثليا عند صاحب التوصيف، والمقصود به تجليته وتقريبه إلى المتلقي، وذلك هو إدراك الغزالي لأهمية المثال ودوره. قال: "الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق"<sup>(47)</sup>.

وبوسعنا سيرا على مقاربتنا التقابلية، إقامة مجموعة من العوالم المتقابلة في المقطع الذي أوردناه:

(المُجَّح له - الله تعالى (مقابل) الكون المَسْجُح: الرمال والضلال والجبال)، (الخالق المزين العاصم (مقابل) الإنسان المخلوق)، (استحان المخلص في عبوديته لحضرة الجلال (مقابل) استقبح واستثقال كل ما يصرف عن ذلك)، (الدنيا ظاهرها امرأة جميلة تختال (مقابل) باطن الدنيا عجوز شوهاء)، (الدنيا قناعها سحر واحتيال (مقابل) حقيقةها النصب)، (الدنيا امرأة تعد بالوصال (مقابل) المغرورون بها مخدوعون بوعودها)، (الوعد بالوصال تقييد (مقابل) الموعد مقيد)، (العارفون بها زهدوا فيها (مقابل) المغرورون تعلقوا بها)، (الإقبال على حضرة الجلال (مقابل) الإقبال على امرأة تختال)، (الوصال بحضرة الجلال لا انفصال فيه (مقابل) التعلق بالدنيا بلاء وعناء دون وصال)، (التعلق بالدنيا كمال وهمي (مقابل) التعلق بالله كمال حقيقي) .

تبين هذه التقابلات المستخلصة عن سر صناعة الخطاب في كتابات الغزالي، كما كشفنا ذلك في نماذج سابقة، ويبين هذا عن إدراك الغزالي لكيفيات ترتيب القول وتنسيقه وبثه، وأن خير أسباب الإيضاح هو التعبير عن المعاني والأفكار عبر مقابلاتها ومماثلاتها، وإيرادها على نسق تقابلي ممتع، وبعبارات أنيقة وأسلوب بديع. وهذا من أسرار تأويلية الغزالي البليغة للشرعية، وعنصر من عناصر إقبال الناس على كتبه وإن خالفوه في الاتجاهات والأقوال.

(47) الإحياء، ج 1، ص. 301.

## خاتمة وتوصية

لم يقدم الغزالي في إحيائه فقط تأويلا لمظاهر الكون وأسرار الشريعة، بل وجدناه مؤولا للعديد من النصوص القرآنية والحديثية يني معانيها ويربطها بسياق تناوله لمسألة دينية؛ قد تبين لنا أن مشروعه في الإحياء كان على درجة عالية من السبك المنهجي، والغنى المعرفي والتأنق الأسلوبي واللغوي، والقوة الاستدلالية والحجاجية المتينة، وهي مواصفات تأليفية يجدها القارئ في كتب الغزالي الغزيرة، وحسبنا الإشارة إلى هذا، مع ما شغلنا أساسا في هذا المقال وهو التأويلية التقابلية التي تحضر على طول الإحياء، وهي خاصية أخرى نضيفها إلى ما ألفت محللو الخطابات الإشارة إليه، فقد برع الغزالي في بناء أفكاره وتصوراته وحججه بناء تقابليا منطقيا دقيقا، مدفوعا في ذلك بالمتلقين الناكرين عليه أفكاره وتصوراتهم من جهة، وبالمتلقين العاديين الذين إلى يحتاجون إلى المثال، أو الأمر ومقابله حتى يتحقق لهم كمال الفهم والافتقار.

وللمهتمين بنظريات التلقي ومفاهيم التأويل اليوم أن يجتهدوا في استخلاص المادة الخام مما تضمنته المصنفات التراثية الكثيرة؛ فما تضمنه الإحياء مثلا، وغيره من مؤلفات الغزالي يشكل نظرية قائمة للتأويل النصي والسياقي، بل تأويل الكون والشريعة والوجود، وبالإمكان تتبع كل القضايا والاهتمامات التي تضعها نظريات التلقي في صلب اهتماماتها مثل مراتب المتلقين، وبناء المعاني والافتراض والتقدير والترجيح والفهم والدلالات والمساق والسياق وغيرها. ويستفاد من هذا أن التراث العربي الإسلامي وهو يحلل خرائط المعرفة الدينية والتصوفية والكلامية والفلسفية تشكلت داخله وموازة مع ذلك تصورات جديدة بالاهتمام والتبعية، ثم وردت علينا مؤخرا من المباحث الأدبية والنقدية الغربية عبر الترجمات، والأولى إعادة تركيبها واستخلاصها من الأدبيات

العربية القديمة مثل التفاسير والشروح الشعرية وعلوم الفقه وأصول  
الفقه والفتاوى والمناظرات وكتب النقد الأدبي وتاريخ الأدب ومؤلفات  
الفلاسفة العرب، وغيرها.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)

## الفصل الثالث

### التقابلات النصية وأثرها في بلاغة الخطاب الشعري

مقاربة تأويلية تقابلية  
لمرثية مالك بن الربيع التميمي

الشعر قول وإيحاء، بوح وإسرار؛ إنه حال من التعبير ينقلنا بين عالمين أو موضوعين، والقصائد الشعرية تبعا لذلك قابلة لأن تقرأ على مستويين اثنين، وإن كانت واضحة المعاني والدلالات: ما قيل (المعبر عنه) وما لم يقل (المسكوت عنه)، الظاهر والباطن، الذات والآخر، لأن الكتابة مرتبطة بالأحوال الذهنية والنفسية المتقابلة، فهي تنشأ وترعرع في الفضاءات الدلالية لهذه العوالم المتقابلة، والوضعيات الشائبة.

عند بناء النص يستحضر الشاعر عناصر محددة ويعد أخرى، بناء على المقاصد الباطنية التي تحكم فيه. وبما أن الكتابة تُبنى، في الأصل، على الاقتصاد والاختزال فإن صانع النص يلجأ إلى الانتقاء، لأن مجال الكتابة محدود وآلياتها تستلزم الاختزال والإيحاء. ولذلك تتولى القراءة حل المعاني المكثفة وتوسيعها، متحية بها مسارات شتى تعكس الاتجاه النقدي لمحلل النص، أو ميوله وفلسفته أو غير ذلك. وتعتبر آلية التأويل بالتقابلات بمستوياتها الكثيرة الممكنة من المنهجيات القرائية التي نرى أنها ذات فائدة كبرى في قراءة النصوص وإقراءها.

## 1 - النص<sup>(1)</sup>

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً  
بِجَنْبِ الْغُضَى أَزْجِي الْقِلَاصَ النَّوَاجِيَا  
فَلَيْتَ الْغُضَى لَمْ يَقْطَعْ الرُّكْبُ عَرْضَهُ  
وَلَيْتَ الْغُضَى مَاشَى الرُّكَّابَ لِيَالِيَا  
لَقَدْ كَانَ فِي أَهْلِ الْغُضَى لَوْ دَنَا الْغُضَى  
مَزَارٌ وَلَكِنْ الْغُضَى لَيْسَ دَانِيَا  
أَلَمْ تَرْنِي بِنْتُ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى  
وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عِفَانِ غَازِيَا  
وَأَصْبَحْتُ فِي أَرْضِ الْأَعَادِيَّ بَعْدَمَا  
أَرَانِي عَنْ أَرْضِ الْأَعَادِيَّ قَاصِيَا  
دَعَانِي الْهُوَى مِنْ أَهْلِ أَوْدَةٍ وَصُحْبَتِي  
بِذِي الطَّبَسِينِ فَالْتَفْتُ وَرَائِيَا  
أَجِبْتُ الْهُوَى لَمَّا دَعَانِي بِزُفْرَةٍ  
تَقَنَّنْتُ مِنْهَا أَنْ أَلَامَ رِدَائِيَا  
أَقُولُ وَقَدْ حَالَتْ قُرَى الْكُرْدِ بَيْنَنَا  
جَزَى اللَّهَ عَمْرًا خَيْرَ مَا كَانَ جَازِيَا  
إِنَّ اللَّهَ يُرْجِعُنِي مِنَ الْغَزْوِ لَا أَرَى  
وَأَنْ قَلَّ مَالِي طَالِبَا مَا وَرَائِيَا

(1) القالي أبو علي بن القاسم البغدادى، ذيل الأمالي والنوادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج. 3، ط. 1، ص. 135-138. النص موجود كذلك في "العقد الفريد" لابن عبد ربه، تحقيق عبد المجيد الترحيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ط. 3، ج. 3، ص. 203. لكنه أقصر من نظيره في ذيل الأمالي مع اختلافات في الرواية.

تقول ابنتي لما رأْتُ طول رِختي  
سِفاركُ هذا تاركي لا أبا ليا  
لعمري لئن غالتُ خُراسانُ هامتي  
لقد كنتُ عن بابي خُراسانَ نائيا  
فإن أنجُ من بابي خراسان لا أُعدُ  
إليها وإن مَنِّتُموني الأمانيا  
فليله دَرِّي يوم أتركُ طائِعا  
بنيَّ بأعلى الرَّقْمَتَيْنِ وماليا  
ودرُّ الظباءِ السانحات عَشِيَّة  
يُخَبِّرُن أُنِّي هالكُ مَنْ ورائيا  
ودرُّ كِبريِّ اللَّذَيْنِ كِلاهما  
عليَّ شَفِيقُ ناصح لو نهانيا  
ودرُّ الرِّجالِ الشَّاهدين تَفْشُكي  
بأمرِي أن لا يقصروا من وثاقيا  
ودرُّ الهوى من حيث يدعو صحابتي  
ودرُّ لجاجاتي ودرُّ انتهائيا  
تذكرتُ من يكي عليَّ فلم أجد  
سوى السيف والرمح الرَّدِينِيَّ باكيا  
وأشقرَ محبوبكا يَجُرُّ عِناهُ  
إلى الماء لم يترك له الموتُ ساقيا  
ولكن بأكنافِ السُّمَيْنَةِ نِسْوَةً  
عزيرٌ عليهنَّ العَشِيَّة ما بيا  
صريعٌ على أيدي الرِّجالِ بِقَفْرة  
يُسوون لحدي حيثُ حُم قضائيا

ولما تراءت عند مَرَوْ مَنِّي  
وَحَلَّ بِهَا جِمْي وَحَانَتْ وَفَاتِيَا  
أَقُولُ لِأَصْحَابِي أَزْفَعُونِي فَإِنَّهُ  
يَقَرُّ بِعَيْنِي أَنْ تُهَلَّ بَدَا لِيَا  
فِيَا صَاحِبِي رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَأَنْزِلَا  
بِرَابِيةَ إِنِّي مُقِيمٌ لِيَا لِيَا  
أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ  
وَلَا تُعْجِلَانِي قَدْ تَبَيَّنَ شَانِيَا  
وَقُومَا إِذَا مَا اسْتُلِّ رُوحِي فَهَيْئَا  
لِي السُّدْرُ وَالْأَكْفَانُ عِنْدَ فَنَائِيَا  
وَحُطَّاءُ بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجَعِي  
وَرُدَّأًا عَلَيَّ عَيْنَيَّ فَضَّلْ رِدَائِيَا  
وَلَا تَخْضُدَانِي بَارِكِ اللَّهُ فِيكُمَا  
مِنَ الْأَرْضِ ذَاتِ الْعَرَضِ أَنْ تَوْسَعَا لِيَا  
حُذَانِي فَجَرَّانِي بَنُوبِي إِلَيْكُمَا  
فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيَادِيَا  
وَقَدْ كُنْتُ عَطَافًا إِذَا الْخَيْلُ أَدْبَرَتْ  
سَرِيعًا لَدَى الْهَيْجَا إِلَى مِنْ دَعَانِيَا  
وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا عَلَى الْقَرْنِ فِي الْوَعْيِ  
وَعَنْ شَتْمِي ابْنَ الْعَمِّ وَالْجَارِ وَانِيَا  
فَطَوَّرَا تِرَانِي فِي ظِلَالٍ وَمَجْمَعٍ  
وَطَوَّرَا تِرَانِي وَلِعِنَاكَ رِكَايَا  
وَيَوْمَا تِرَانِي فِي رَحَاً مُتْدِيرَةٍ  
تُخَرِّقُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ ثِيَابِيَا

وقوما على بئر الشمينه أسعما  
 بها الغرّ والبيض الحسان الروايا  
 بأنكما خلقتاني بقفرة  
 تهيل عليّ الريح فيها السوايا  
 ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما  
 تقطع أوصالي وتبلى عظاميما  
 ولن يعدم الوالون بشا يصيهم  
 ولن يعدم الميراث مني المواليا  
 يقولون لا تبعد وهم يذفنونني  
 وأين مكان البعد إلا مكانيا  
 غداة غد بالهف نفسي على غد  
 إذا أذلجوا عني وأضبحت ثاوريا  
 وأصبح مالي من طريف وتاليد  
 لغيري وكان المال بالأمس ماليا  
 فيا ليت شغري هل تغيّرت الرّحا  
 رحا المثل أو أمست بفلج كما هيا  
 إذا الحيّ حلّوها جميعا وأنزلوا  
 بها بقرا حمّ العيون سواجيا  
 رعين وقد كاد الظلام يحنّها  
 بسفن الخرامى مرّة والأقاجيا  
 وهل أترك العيس العوالي بالضحي  
 برُكبانها تعلقو المنان الفيايا  
 إذا عصّب الرُكبان بين عترة  
 وبولان عاجوا المبيقات النواجيا



فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أُمُّ مَالِكٍ  
 كَمَا كُنْتُ لَوْ عَالُوا نَعْيِكَ يَا كِيَا  
 إِذَا مُتُّ فَاغْتَادِي الْقُبُورَ وَسَلَّمِي  
 عَلَى الرَّمْسِ أَسْقِيَتِ السَّحَابَ الْغَوَادِيَا  
 عَلَى جَدَثٍ قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ  
 تُرَابًا كَلَوْنِ الْمَرْبَانِيَّ هَايَا  
 رَهِينَةَ أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ تَضَمَّنْتُ  
 قَرَارُتَهَا مِنْ نِي الْعِظَامِ الْبَوَالِيَا  
 يَا صَاحِبَا إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَّغَا  
 بَنِي مَازِنٍ وَالرَّيْثَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا  
 وَعَرَّ قَلُوصِي فِي الرُّكَابِ فَإِنَّهَا  
 سَتَفْلِقُ أَبْجَادًا وَتَبْكِي بَوَاكِيَا  
 وَأَبْصَرْتُ نَارَ الْمَازِنِيَّاتِ مَوْهِنَا  
 بِعِلْيَاءٍ يُنْشَى دُونَهَا الطَّرْفُ رَانِيَا  
 بِعُودِ الْتَجْوِجِ أَضَاءَ وَفُودُهَا  
 مَهَا فِي ظِلَالِ السُّدْرِ حُورًا جَوَازِيَا  
 غَرِيبٌ بَعِيدُ الدَّارِ ثَاوٍ بِقَفْرَةٍ  
 يَدُ الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِأَنْ لَا تَدَانِيَا  
 أَقْلَبُ طَرْفِي حَوْلَ رَحْلِي فَلَا أَرَى  
 بِهِ مِنْ عُيُونِ الْمُؤْنِسَاتِ مُرَاعِيَا  
 وَبِالرَّمْلِ مِمَّا نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْتَنِي  
 بِكَيْنَ وَفَدَّيْنِ الطَّبِيبَ الْمُدَاوِيَا

وما كان عهد الرَّمْلِ عِنْدِي وَأَهْلِهِ  
 ذَمِيمًا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَعْتُ قَالِيَا  
 فَمِنْهُمْ أُمْسِي وَابْتَسَايَ وَخَالَتِي  
 وَبَاكِئَةً أُخْرَى نَهَبْتُ الْبَوَاكِيا

## 2 - مالك بن الريب

من الشعراء الصعاليك في أيام بني أمية، نشأ في بادية بني تميم. تذكر المصادر التي تناولت جانباً من حياته أنه كان شاعراً فاتكاً لصاً، كان يقطع الطريق هو ومجموعة من صحبه، منهم شظاظ وأبو حردبة وغويث... فتعقبهم مروان بن الحكم، وأوصى عامله على بني عمرو فقبضهم الأنصاري. وبينما هما كذلك تغفل مالك غلام الأنصاري وانتزع منه السيف وقتله وقتل الأنصاري، ثم فر إلى البحرين بعد تخليص صاحبه أبي حردبة<sup>(2)</sup>.

انتقل مالك إلى فارس، وعندما استعمل معاوية بن أبي سفيان سعيداً بن عفان على خراسان سنة 56 هـ لقيه هناك، وكان مالك من أجمل الناس وجهاً، وأحسنهم ثياباً، وأفصحهم عبارة. فلما رآه أعجبه، فقال: مالك، ويحك تفقد نفسك بقطع الطريق! وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل؟ قال: يدعوني إليه العجز عن المعالي ومساواة ذوي المروءات ومكافأة الإخوان. قال: فإن أنا أغنيك واستصحبتك أتكف عما كنت تفعل؟ قال: أي والله أيها الأمير أكف كفاً لم يكف أحد أحسن منه. فاستصحبه، وأجرى له خمسمائة درهم<sup>(3)</sup>.

(2) الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج. 22، ص. 290.

(3) نفسه، ص. 287.

أبلى مالك بلاء حسنا في حروب خراسان، وعند رجوعه مرض، فلما أشرف على الموت تخلف معه مئة الكاتب ورجل آخر، ومات في منزله ذاك، فدفناه، وقبره هناك معروف<sup>(4)</sup>. وقال آخرون بل اعتل في غزو سعيد، فمات هناك، حيث ذكر مرضه في قصيدته، وهي من نفيس الشعر ومات في الطريق... والله أعلم أي ذلك كان<sup>(5)</sup>. وشعره موزع في تضاعيف المصادر التاريخية والأدبية والنحوية، وهو يصور جوانب من حياته سواء في مرحلة التلصص والصلعة، أو في مرحلة **والصلاح<sup>(6)</sup>**.

### 3 - البلاد السالبة

يأتي مطلع النص حاملا لعدد من وجوه التقابل، محورها ذات الشاعر المتكلم الحاضر المحتضر، مقابل الآخر (المرأة) كما اعتاد الشعراء في مقدماتهم الطللية والغزلية. إن الحضور هنا نفي للغياب، ثم حضور رثاء الذات مقابل رثاء الغير، وهذا التمني الناطق بشائبة الامتلاك والافتقار، امتلاك الغضى والميت فيه كما كان حاصلًا في الماضي، مقابل العجز عن تحقيق تلك الإمكانيات في الزمن الحاضر- زمن القول- وهو زمن ذوبان الحلم.

يفيض المطلع كذلك بإحساس الشاعر بالفضاءين المتقابلين بأبعاد عميقة: الزمان والمكان، الغضى المفتقد بما فيه: الشجر الغض والجمر الشديد الاشتعال، والظل الظليل، والسامر ومكان الأجرة والدفع والمودة وجمال القلاص والليالي الجميلة والشباب الراحل... أشياء مفتقدة في الزمان الحاضر، حاضرة في الذاكرة والوجدان واللسان،

(4) الأصفهاني، الأغاني، م.م، ج. 22، ص. 301.

(5) القالي، ذيل الأمالي، م.م، ص. 135.

(6) انظر محمد رضا مروءة، الصعاليك في العصر الأموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1990، ص. 138.

غائبة عن الأيادي والعيان.

ألا ليت شعري هل أبين ليلة

بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا<sup>(7)</sup>

ألا: للاستفتاح والتنبية على انطلاق القول، والدخول في عوالمه، تجاوز عتبة الصمت إلى بوابات الإفصاح، إنه استفتاح المتمني الحالم بالمستحيلات، تمنى الوصول إلى الغضى؛ العاجز المريض لا يمكنه ذلك لبعد المسافة ورحيل الشباب. أصبحت الحال حال مرض وعجز والتمني باب على الحلم المستحيل، عبر الاستفهام المعبر عن رغبة العاجز، وهي المبيت المؤكد بشكل إلحاحي (أبين): نون التوكيد الشديدة التي تظهر قوة هذه الرغبة وعنفها. (ليلة) يأمل الشاعر في ليلة واحدة، وقد جاءت نكرة، لتحمل دلالة عدم التحديد الزمني، العاجز لا يستطيع أن يحدد ليلة معينة لأن إمكانيات بلوغ ذلك ضئيلة، لذلك جاءت نكرة حاملة معنى الاحتمال واللاتحديد وشبه يأس بلوغها، إنها ليلة فقط.. لكنها تظل مرتبطة في إحساس الشاعر بالدفع والخلود إلى السكينة. وهي ليلة تقابل في نفسيته النهار المليء بالحركة والفعل، بالنهارات التي مضت بجنب الغضى أو به. إن تغيب النهار وانتقاء الليل يحمل بدوره نزوعا إلى التخفي والاستتار، وكأن المعنى المقابل المؤول: لا يظهر بالغضى نهارا إلا من تأتت له إمكانيات البروز: القوة والشباب والعُدَّة والمال، أما الغريب الذي افتقد كل ذلك بسبب مرضه وعجزه فلا يليق به إلا الليل، وكما تقول العرب "الليل أخفى للويل".

الغضى: جمع غضاة، وهو شجر معروف بخضرته الدائمة، وصلابة خشبه، وديمومة اشتعال جمره. بإمكاننا الوقوف مرة أخرى على هذا التقابل المستخرج أو المؤلَّد بين الغضاضة والاشتعال. فالغضى يحمل

(7) جمع ناجية، وهي الناقة السريعة التي تنجو بمن ركبها.

غضاضة الذكريات والحنين وطراوة الإحساس بزمان الشباب، لكنه الآن منعدم وغائب. كما يحيل على الاشتعال: اشتعال النار- عبر التذكر- والتخلق حولها أيام الشباب والهناء والسعادة والمرح.

بإمكاننا كذلك توليد تقابل آخر، وهو تحلق الإبل للرعي في الغضى، وتحلق الأهل حول نار شجر الغضى. إن الغضى في جميع الحالات بتقابلاته المختلفة، هو عالم الألفة والتجمع سواء بين الحيوانات التي ترعى، أو بين الناس المتحلقين حول النار.

لنقف مرة أخرى على المكونات التالية في البيت المطلعي: (أزجي) أي أسوق بيلن ورفق. القلاص: جمع: قلوص، وهي الناقة الطويلة القوائم، الشابة فيها الباقية على السير. والنواجي جمع ناجية: وهي الناقة السريعة التي تنجو بمن ركبها.

يحمل هذا البيت معاني الارتداد نحو الماضي بحركته ودفته وجميع مكوناته، حيث الفاعلية متحققة، وأثر الشاعر في الحياة حاضر بقوة، كل شيء في الذكريات البعيدة جميل ومشرق، وكأن الذاكرة لا تمد المتذكرين إلا بما كان ممتعا وبديعا؛ إنه زمن الغارات والفرار والنجاة. مقابل ذلك -أي في خراسان- يظهر الموت قادما قريبا يدنو شيئا فشيئا، ليتصر على الحياة الماضية بعنفوانها وقوتها وجمالها.

إن علاقة الشاعر بالمكان (الغضى) لوحة قابلة لكل التشكيلات، بحيث يمكن ملؤها بكل الأشياء الجميلة في حياة الشاعر. ولأن البيت المطلعي يفصح سرية النص، ويختزل النواة الدلالية الكبرى التي تجتمع عندها باقي النوى الأخرى، فهو يساعدنا على تكوين أطر موسعة للتجربة الشعرية المؤسسة على تقابلات بديعة. وهكذا، يمكن الانطلاق من هذه البنيات المتقابلة في ذهن الشاعر وإحساسه لاستكمال السيناريوهات الناقصة التي شرعنا في إنشائها:

| الشاعر                   |                    |
|--------------------------|--------------------|
| الغضى                    | خراسان             |
| الماضي                   | الحاضر             |
| الشباب                   | الشيخوخة           |
| الامتلاك                 | الافتقار           |
| ليلة                     | النهارات           |
| الحلم الجميل             | الواقع الصعب       |
| يسوق بليونة (أزجي)       | يساق بخشونة        |
| السؤال (هل)              | الواقع يجيب ب (لا) |
| زمن القرب (بجنب)         | زمن البعد (نائيا)  |
| دفع الصحة والقرب والتعلق | برودة المرض        |
| الخير (القلاص الكثيرة)   | الجذب والفقر       |
| زمن التعلق والألفة       | زمن الشتات         |
| زمن الصحة                | زمن المرض          |
| زمن الأنس                | زمن الألم والغربة  |
| زمن البدايات             | زمن النهايات       |
| زمن الحياة               | زمن الموت          |

↓  
خراسان بلاد سالبة

↓  
الغضى بلاد مانحة

تمنحنا آلية التقابل - القائمة على القراءة المتفاعلة والمشاركة - الفرصة لإغناء تجربة القراءة وإخصابها في جميع الاتجاهات الدلالية. وتبعاً لذلك فإن السيناريو المُكوّن ينبنى على شقين متقابلين يتكاملان عناصرهما اعتماداً على مشاركة تأويلية وبنائية حقيقية من طرف القارئ. يقوم التقابل المركزي في هذا النص على التشظي والتمزق في أحاسيس الشاعر أساساً، وشعوره بالغربة والموت.

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضى ماشى الرّكّاب<sup>(8)</sup> لياليا

الرّكّاب: الجماعة من الناس يسافرون راكبين، والرّكّاب الإبل التي يسار عليها. يأتي البيت الثاني منميا لمعاني التمني، حاملا معه إحساس الشاعر بالخسران والعجز المطلق عن الفعل، وهو تحسر ينبني نصيا وتأويليا بشكل تقابلي: التمني الظاهر تعبيرًا وأداةً مقابل التحسر الضمني العميق على ما جرى. التحسر على قطع الركب لأرض الغضى، مقابل التحسر على عدم مماشة الغضى للرّكّاب. الواقع مقابل الحلم. الركب قد قطع الغضى مقابل الركب لم يقطع الغضى. الغضى لم يماش الرّكّاب مقابل الغضى ماشى الركاب. الغضى الأرض التي تم قطعها مقابل الغضى المرافق للركب. عَرَض الغضى مقابل طوله، لأن كل ما له عرض له طول، والطول أوسع مسافة. الغضى المتروك مقابل الغضى العاجز عن مماشة الراكبين... إلى غير ذلك من التقابلات التي يمكن بناؤها.

عادة ما يقوم القول الشعري على التكثيف والاختزال، على الإظهار والإخفاء، ومن ثمة تفتح القراءة القائمة على إستراتيجية التقابل عددا من الواجهات والمداخل: منها المدخل اللغوي، والمدخل النحوي، والمدخل البلاغي، والمدخل الدلالي، والمدخل المنطقي، ثم التوازيات والتقاطعات والتماثلات، وهذه القراءة قادرة على تتبع نمو القصيدة، ومسايرة بنياتها جزءا جزءا.

لقد كان في أهل الغضى لَوّ دنا الغضى

مزارٌ ولكن الغضى ليس دانيا

(8) الرّكّاب هي الإبل التي يُسار عليها، واحدها راحلة. وفي الحديث: "إذا سافرتم فأعطوا الركاب أسِنَّها، أي أمكنوها من المرعى".

يأتي البيت الثالث على شكل خبر إنكاري، مؤكّداً بـ"اللام" و"قد"، وكأن الشاعر أحس باستكثار المتلقي لهذا الحب الشديد للغضى، ليؤكد عبر الإخبار على ارتباطه الشديد بقرينته وأهله في الغضى، مينا سبب هذا الارتباط بشكل تقابلي بديع: فالغضى -كؤ دنا -مزار مقابل الغضى البعيد لا مزار. الغضى كان مزارا مقابل الغضى اليوم لا يُزار. كؤ دنا الغضى زُرته مقابل الغضى بعيد وأنا عاجز. كانت الزيارة ممكنة كؤ دنا الغضى في مقابل امتنعت رؤية الغضى وأهلي. امتناع الزيارة لامتناع القرب مقابل امتناع الزيارة لوجود البعد. الغضى الداني مزار مقابل الغضى القاصي لا مزار. اكتمال الأمانة في الزيارة باكتمال شروطها: القرب والقدرة، في مقابل استحالة تحقق الأمانة بالاستدراك (لكن) لافتقاد شروط ذلك.

يقوم التأويل التقابلي على توليد المعاني التي يوحى بها القول، أو السير بموازاتها، أو تعميم نقصها. وهكذا يتبدى من البيت الثالث أنه توسيع لنواة العجز عن بلوغ الغضى عبر الرحلة المادية، فيكتفي الشاعر بالرحلة الذهنية عبر التذكر والارتداد نحو الماضي مذكرا بأسباب ذلك:

ألمَ تَرْنِي بعت الضلالة بالهدى

وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

في محاولة لاستعادة بعض التوازنات النفسية، يتوجه الشاعر إلى المتلقي: من معه، وبعدها لغيره، في بناء تقابلي ظاهر وخفي تبنيه القراءة التقابلية التالية: ألم: استفهام منفي، ليس القصد منه انتظار جواب من المتلقي، وإنما تأكيد الفعل الحاصل، أي الانتقال من حال الصلابة إلى الغزو. يحضر الاستفهام المنفي مقابل الجواب التأكيدي. السائل المستفهم مقابل المسؤول الذي لا يُعوّل على إجابته لعدم إفادتها



لوضع الشاعر في شيء. الرؤية البصرية (تراني) مقابل الرؤية العلمية وكذا الرؤية الحُلمية. الشاعر مقابل المخاطب المباشر وغير المباشر. البيع (بعتُ) مقابل الاشتراء. البيع الحقيقي مقابل البيع المجازي (الضلالة لا تباع). الضلالة مقابل الهدى. الضلالة الحقيقية (الطريق) مقابل الضلالة المجازية (الكفر). بعت (الفعل الأول) مقابل أصبحت غازيا (الفعل الثاني). أصبحت (الزمن الحاضر) مقابل كنت (الزمن الماضي). كنت في عصابة ناهبة مقابل أصبحت في جيش المسلمين. عهد التلصص والإغارة مقابل عهد التوبة والصلاح.

لا شك أن التقابلات المبنية تبين مدى اختزال القول الشعري واقتصاده وطبَّه للمعاني، وكونه مبنيا على عوالم من المتقابلات المعنوية أو المادية التي يتأسس عليها الكون والعلاقات والوضعيات والحالات. وبما أن الأمر كذلك فإن أقرب الطرائق لفهمه وتلقيه هي تسخير آليات التقابل المتعددة للفهم والإفهام والتذوق.

وأصبحت في أرض الأعادي<sup>(9)</sup> بعدما

أراني عن أرض الأعادي قاصيا

بوسعنا أن نجلي أكثر البنية التقابلية التي تأسست عليها القصيدة، وهو ما يقربنا كذلك من إمكانيات التعبير والكتابة، ومستويات البناء الشعري، كما يسمح لنا بتأسيس جمالية تأويلية قائمة على أدوات القول نفسه، وإذا التقى التلقي الشعري والإبداع الشعري على مهاد واحد، وأرضية مشتركة من آليات القول ومستوياته، فإن التفاعل سيحصل بشكل كبير، ويكون الشعر قد وجد له القراء الذين يفهمون الأسس التعبيرية التي ينبني عليها. ومن عناصر التقابل الممكن العمل بها: التقابل بين البيت والبيت الذي يليه وهو تقابل الجوار أو التجاور، ويتخذ

(9) الأعادي: جمع أعداء.

علاقات متعددة: تقابل التميم، تقابل التوسيع، تقابل الشرح والتفسير، تقابل التماثل، تقابل التضاد....

في هذا البيت نجد تقابلا تميميا على مستوى المعنى؛ فالواو العاطفة تحمل مطلق الجمع والاشتراك، "وأصبحت" الثانية تنضاف للأولى لتؤسس معها كذلك تقابل التضاد: أصبحت مقابل كنت. بعدما مقابل من قبل. الرائي مقابل المرئي. قاصيا مقابل دانيا وهو تقابل مؤلّد. كما يمكن مقابله بما جاء في البيت السابق: دان إلى العدو مقابل قاص عن الغضى. العدو ليس قاصيا مقابل الغضى ليس دانيا. أرض الأعادي الأولى مقابل أرض الأعادي الثانية: تقابل التكرير الذي يرسخ قيمة الخطر الداهم.

أصبحت بين المسلمين في الجيش، مقابل أصبحت كذلك في مواجهة العدو. العدو القديم أصبح ناصرا مقابل العدو الجديد أعتى وأشد. بداية تحقق الأمن مع عدو قديم مقابل بداية الخطر مع عدو جديد. العدو القديم معروف مقابل العدو الجديد مجهول. المواجهة من قبل كانت اختيارا شخصا مقابل المواجهة الآن لا اختيار فيها. الماضي حرية مطلقة في اتخاذ قرار الحرب مقابل الحرية مقيدة وقليلة في الحاضر لاتخاذ هذا القرار أو عدم اتخاذه.

يسمح لنا إجراء التأويل التقابلي بفهم دقيق للأسس الجمالية التي يتأسس عليها القول الشعري، ولعل الذين برعوا في القول الشعري إنما كان السر في ذلك هو نظرتهم إلى العالم وإلى الذات والحالات والمجتمع من حولهم نظرة تقابلية، فصاغوا أبنية نصوصهم تبعا لذلك. وقد لا يفطن المتلقي - في كثير من الأحيان - إلى أن السر وراء جمال القول وإبداعه هو صناعته بطريقة تقابلية، تتخذ لها أبعادا ومستويات عديدة يبرزها التحليل النقدي والأدبي الذي ينطلق من هذا البعد الجمالي والتأويلي في فهم النصوص والخطابات، ولعل أكبر أسرار

نجاح أبي الطيب المتنبي -مثلا- في أشعاره وإشغاله للناس، هو البناء التقابلي البديع الذي تتأسس عليه نصوصه، فهو يبنّيها على نظام الكون، ويؤسس بين عناصر المعنى هذه الإمكانيات التقابلية التي يجب أن يتّجه إليها النقد ليؤسس عليها نظرية موسعة في الفهم والإفهام. ويمكن لأيّ متمعن في أشعاره أن يلاحظ ذلك الازدواج المعنوي<sup>(10)</sup> سواء اعتمد على التضاد أو المقابلة، أو التشبيه أو غيرها.

#### 4 - الزُفْرَة والقناع

ظلت المعاني تتوالد في خلد الشاعر بهذا المنوال التقابلي القائم على التجاذبات الثنائية والجدلية والتفاعلية، وهي تكتمل شيئا فشيئا لتفصح عن تجربته الراهنة والماضية معا، في محاولة تبرير ما حدث، ولخلق تفاعلات نفسية وتجاوب فعال لدى المتلقّين المباشرين (صاحبه) أو المتلقّين المفترضين (أنا وأنت وغيرنا) . وهكذا يعود بنا الشاعر إلى ما قبل القول، وحال القول، وما بعد القول (المتقبل) وما يمكن أن يحمله من أحداث عندما يحصل الاطلاع على النص والتفاعل معه كما يحدث الآن.

دعاني الهوى من أهل أود<sup>(11)</sup> وضحني

بذي الطّين<sup>(12)</sup> فالتفت وراثيا

أجبت الهوى لما دعاني بزُفْرَة<sup>(13)</sup>

تَقَنَّنْتُ مِنْهَا أَنْ أَلَامَ رِدَائِيَا

(10) انظر دارسة يوسف الحناشي، الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط. 1، 1986، ص. 40، وص. 138 وص. 176 وغيرها.

(11) اسم موضع.

(12) مكان بخراسان.

(13) إخراج النَّفس بعد مده، النفس الحار تشبيها له بزفير النار (توقدها).

تتجه المعاني في هذين اليتين وما بعدهما، إلى إبراز تقابلات أخرى تُظهر مسار القصيدة العامة للقصيدة، وهي التي يمكن توليدها وإعادة بنائها كما يلي:

الداعي مقابل المدعو. الفاعل (الهوى) مقابل المفعول به (ضمير الحكلم). المدعو فرد مقابل المتروك دون دعوة: الجماعة المصاحبة. الهوى الداعي تابع مقابل الشاعر المدعو متبوع. الهوى قادم من أرض الغضى مقابل مكان الدعوة ذي الطبين. الفعل (الدعوة) مقابل رد الفعل (الالتفات). الاستجابة والتأثر (الالتفات إلى الوراء) مقابل عدم الاستجابة وعدم المبالاة (التقدم إلى الأمام). إن تأثر الشاعر بهذا الداعي الخفي يولد لدينا تقابلا ذا طبيعة بلاغية: الدعوة الحقيقة: الإنسان مقابل الدعوة المجازية (غير الإنسان). وكذا التقابل بين: دعائي الهوى مقابل أجبت الهوى. الجواب كلاما وبصريح العبارة مقابل الجواب كناية وزفيرا. الزفير (إخراج النَّفس بعد مَدِّه، النفس الحار تشبيها له بزفير النار وتوقدها). الحرارة الصادرة في أنفاس الشاعر مقابل البرودة الغائبة.

يبين التقابل هنا مدى تفاعل الشاعر مع الداعي، وعدم الكلام والتصريح قناع رمزي يقابله قناع آخر، وهو الرداء الذي وضعه على وجهه حتى لا يظهر تأثيره وبكاؤه أمام صحبته فيلام على ذلك: الزفرة: قناع معنوي خفي مقابل الرداء قناع مادي ظاهر. خاف الشاعر من اللوم الخارجي لأصحابه لكن مقابل ذلك يتحقق اللوم الداخلي، حيث يلوم نفسه على استسلامها للهوى، للماضي البعيد الذي يتبعه ويطارده ولا يستطيع الخلاص منه.

ولا شك أن هذا الجواب أي جوابه لصحبه يحتاج إلى توضيح

وبيان:

أقول وقد حالت قُرى الكُرْدِ بيتنا

جزى الله عَمراً خيراً ما كان جازياً

إن الله يُرْجِعُنِي مِنَ الْعَزْوِ لَا أُرَى

وإن قَلَّ مَالِي طالباً ما ورائي

يأتي الجواب على شكل قرار يتخذه الشاعر مع نفسه، يتقابل فيه الشرط (إن الله يُرْجِعُنِي) بجواب الشرط (لا أُرَى)، وهو شرط مزدوج يتقابل فيه الشرط الحاضر إن قَلَّ مَالِي بجواب الشرط المفهوم والمقدر والذي يبينه المؤوّل وهو (لا أُرَى غازياً)، ولا أُرَى طالباً ما ورائي.

وبوسع التأويل التقابلي أن يمدنا بمزيد من المعاني المنبثقة من الافتراضات الدلالية، منها أن الشاعر يتحرك طالباً المال، وبالتالي قد يبدو الجهاد وما يحمله من قيم ومعان دينية أمراً ثانوياً: دخول الحرب للجهاد مقابل دخول الحرب طلباً للمال. وربما يدفعنا مثل هذا الحفر الافتراضي إلى تأكيد حقيقة مفادها أن الشاعر لم تتغير فيه بعدُ نزوعاته نحو جمع المال والكسب والغنيمة، مقابل عقيدة الجهاد التي كان من المفروض أن يعلن عنها في هذه القصيدة، بحيث تتأكد فيها صلته ومحبه للآخرة ولقاء ربه، مقابل ذلك ظل فيها شاعراً دنيوياً، يبكي على الدنيا والمال والأهل، ويتحسر على مصيره وما حصل له وما سيحصل من بعده.

يكشف لنا التأويل التقابلي - كما سيتبين لنا فيما بعد - عن مفارقة حقيقية بين المؤمن المجاهد الذي يتمنى الموت في سبيل الله، وبين المقاتل المرتبط بأسباب الدنيا الواهية؛ ولذلك غاب في خطابه البعد الديني، الذي كان بالإمكان أن يعكس لنا تحول شخصية مالك بن الرب وتطهرها من نوازع الدنيا.

قد نفترض أنه تحكمت فيه عادات القول الشعري، وأنه حاكى الأولين في أنماط القول وروثاء الذات، غير أن رحلته في إطار جيش الفاتحين إنما كانت تغذيها نوازع بناء الذات وتحصيل المال والعودة بالغنيمة. هذا السير على طرائق السابقين في عادات القول تبينه الأبيات التالية:

## 5 - الظنية السانحة

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي  
 سفارك هذا تاركني لا أبا ليا  
 لعمري لئن غالت<sup>(14)</sup> خراسان هامتي  
 لقد كنت عن بابي خراسان نائيا  
 فإن أنج من بابي خراسان لا أعد  
 إليها وإن منيتموني الأمانيا  
 فله دري<sup>(15)</sup> يوم أترك طائعا  
 بني بأعلى الرقمتين وماليا  
 ودرّ الظباء السانحات<sup>(16)</sup> عتبة  
 يُخبرن أنني هالك من ورائيا  
 ودر كبيرَي اللذين كلاهما  
 على شفيق ناصح لو نهانيا

(14) غالت: أهلكت.

(15) تقول العرب: لله درّه رجلا، أي من الله كثرة مافيه من الخير. ومقابل ذلك: لا در درك للذم.

(16) منح الظبي أو الطير سنوحا: مر من المياسر إلى الميامن. والسانح تتيمن به العرب وضده البارح ما جاء إلى الشمال.

ودر الرجال الشاهدين تفتكي<sup>(17)</sup>

بأمري أن لا يقصروا من وثاقي

ودر الهوى من حيث يدعو صحابتي

ودر لجاجاتي<sup>(18)</sup> ودر انتهايها

ينضاف إلى العالم الشعري في النص مكون إنساني جديد، وهو بنت مالك التي يسند إليها القول في الزمن الحاضر: تقول، والمقابل المقصود هو الزمن المستقبلي: ستقول، أو يحتمل أن تقول. ثم هذا السفر الممدود (سفار) مقابل (السفر) المحدود زمانا ومكانا. يتظاهر حضور البنت في مخيال الشاعر مالك، وفق بناء تقابلي يضيف على المعاني بعض المفارقات الصعبة التي صاحبت رحلته، وأثرها عليه وعلى من بعده؛ وهكذا يتأسس القول مرة أخرى كأي قول - وهو ما نريد تبيان - نثرا كان أو شعرا على منطق تقابلي متباين الأشكال والتجليات، وذلك تماشيا مع التقابلات التي تقوم عليها الحياة نفسها، لأن الله تعالى خلقها وفق نمط زوجي، أو أنماط متقابلة، تتفاعل بها مكونات العالم فيما بينها أو تتقابل.

وتبعا لذلك فما من قراءة للنصوص ظاهرة أو باطنة، سطحية أو معمقة، إلا وتسير أثناء عملية الفهم بهذا النزوع الواعي أو غير الواعي نحو إدراك الأشياء بمقابلاتها. وليس القصد بالتقابل دوما التضاد، وإنما التماثل، والتناظر، والتشابه، وكذا التقابل تبعا للعلاقات الممكنة بين العوالم والحالات والوضعيات والقيم والأفعال.

وتنحصر التقابلات القرائية خلال هذا المقطع في: بدء القول (قول البنت) مقابل الصمت السابق، ترجيح "رأت" العلمية مقابل

(17) التفتك: العُجب.

(18) لج لجاجا ولجاجة: تمادى وأبى أن ينصرف. وفي المثل العربي: من طرق الباب ولج ولج.

"رأت" البصرية. طول الرحلة أمر غير مرغوب فيه من طرف البنت مقابل قصر الرحلة فهو أمر محمود، لكنه لم يحصل. الأب التارك ابنته تركا أبديا مقابل المتروكة دوما دون أب. كان لي أب قبل يوم معرفة الخبر مقابل لا أب لي بعد معرفة الخبر.

يأتي قول البنت اليتيمة على شكل صرخة مكلومة يتوقعها الشاعر، أو أي أب من ابنته، وهي تلومه على طول الرحلة وعدم العودة. فيقابل هذا القول المتشكي رد الشاعر المليء بالشكوى والتفجع كذلك:

لعمري لئن غالت خراسان هامتي

لقد كنت عن بابي خراسان نائيا  
فإن أنج من بابي خراسان لا أعد

إليها وإن منيتموني الأمانيا

يأتي القسم ليؤكد الخبر، تقرير حال الاغتيال الذي لحقه من خراسان، وكذا (لقد) التي تضيف بعدا تأكيدا للخبر، وكأنه يقول: والله لقد كنت بعيدا عن خراسان فلما دخلتها اغتالني. بإمكان إستراتيجية التأويل التقابلي، وهي تقوم على الافتراضات المعجمية، والتركيبية والدلالية، والبلاغية، فننقل بذلك المعاني من حال إلى آخر تبعا لحركة الذهن، وتنامي أفعال التأويل وتشكلها، ومن ثمة بالإمكان توسيع دائرة المعاني كما يلي:

المقيم مقابل المقسم به. خراسان المغتالة مقابل الشاعر الذي يُغتال. الهامة (الجزء) في مقابل الجمد كله وهو المقصود.

الإنسان موضوع للاغتيال مقابل خراسان تغتال. الفعل على الحقائق مقابل الفعل على المجازات. كنت بعيدا عنك يا خراسان يقابله لم أعد بعيدا عنك. بابا خراسان: باب الدخول مقابل باب الخروج. خراسان قاتلة مقابل غيرها من البلاد بها حياة. إن أنج مقابل لا أعد. فعل نجا



محذوف جزماً لأن النجاة غير مكتملة مقابل لا أعد. كما أن فعل العودة مجزوم لأن العودة غير مكتملة. النقص التركيبي في الفعل مقابل النقص الواقعي في التحقق. لما منيتموني جئت إلى خراسان يقابله إن منيتموني مستقبلاً لا أعود...

غرضنا من هذا التحليل كشف البنيات الدلالية المتقابلة التي يتأسس عليها الخطاب الشعري أثناء صياغته، ولذلك حاولنا إعادتها إلى منطلقاتها الأولية، أو كما تشكلت في خلد الشاعر، غير أن صناعة النص لا تحافظ عليها كما هي في أصل تشكلها، فيتم تغييرها وتقليبها تبعاً لأدوات صناعة الشعر وطرقه الإبداعية، فتخضع حيناً للتقديم والتأخير، وحيناً للحذف والتقدير، أو الاختزال، كما تخضع لآليات البلاغة وضروب التعبير المجازي، وكذا آليات النحو وتراكيبه. وكل ذلك يخلخل المنطق التقابلي الأولي، ويجعل المعنى إيحائياً أو رمزياً، حاضراً كلياً أو جزئياً... وهذا ما يعمل التأويل التقابلي على إجلائه وتوضيحه. وبما أن المعاني لا تكتمل في بنية البيت الواحد، فإن توالي الأبيات يضيف عوالم أخرى من التقابلات التي تحمل أبعاداً أخرى إلى العالم الشعري.

فله درِّي يوم أنرك طائعا  
بني بأعلى الرِّفَمَين وماليا  
ودرُّ الطُّبَّاء السَّانِحَات عثبةً  
يُخَبِّرُن أني هالك من ورائيا  
ودرُّ كَبِيرِي اللَّذِينَ كَلاهما  
على شفيق ناصح لو نهانيا  
ودرُّ الرِّجال الشَّاهِدِينَ تَفْئُكي  
بأمري أن لا يقصروا من وثاقيا

ودَرُّ الهوى من حيث يدعو صحابتي

ودر لجاجاتي ودر انتهایا

يزداد العالم الشعري في النص ثراء لو عمقنا تجربة القراءة التقابلية أكثر، وهي تسمح لنا باقتناص العوالم المتقابلة التالية:

لله دَرِّي (المدح المثبت) مقابل لا دَرَّ دري (الذم المغيَّب). المعنى الظاهر (المدح) مقابل المعنى الباطني

(التعجب والإشفاق). أترك طائعا (الحالة المأمولة) مقابل أترك اضطرارا (الحالة الواقعة والمرفوضة). مالک التارك مقابل البنين والمال المتروكين. المكون الإنساني مقابل المكون المكاني (أعلى الرقمتين). المكون الإنساني (مالك) مقابل المكون الحيواني الطباء السانحات. السوانح (طيور التيمن تأتي من اليمين) مقابل البوارح (تأتي من اليسار دالة على الشؤم) والموافق للمقام الشعري هي البوارح لا السوانح<sup>(19)</sup>. المخبر (الطباء) مقابل المُخَبَّر به (الهلاك). الإخبار (غير مؤكد وغير مثبت) مقابل التخير (تأكيد الفعل وهو اختيار الشاعر هنا). المخبر (الطباء) مقابل المُخَبَّر (الصحاب والأهل). حمولة زمن الرحيل المختار شعريا (عشية) مقابل حمولة الصباح (زمن الولادات). "لله دَرِّي" مقابل "لله دَرُّ كبير". الكيران (الوالدان) مُشفقان مقابل مالك موضوع الشفقة مشفق عليه. الوالدان ناصحان مقابل مالك منصوح. الوالدان ناهيان مقابل مالك المنهي. النهي الحاصل مقابل النهي موضوع تمنٍّ. "لله دري" مقابل "لله در الرجال". الرجال الشاهدون مقابل مالك المشهود. لله در الهوى مقابل لله در مالك. لله در مالك مقابل لله در لجاجاته (تماديه) مقابل لله در انتهائه).

(19) ابن منظور جمال الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط. 3، 1994.  
مادة "سنع" ومادة "برح".

ثم تُقابل هذه المكونات كلها مالكا المملوك: مالك/ البنت/  
الوالدان/ الرجال/ الأطباء/ الهوى/ التماذي/ الماضي/ الحاضر/  
الحياة / الموت.

ثم تنتقل عبر التقابل من هذا المستوى التفاعلي مع مكون المعتقد  
القديم والمعتقد الجديد، حيث يتم الاحتفال على عادة الجاهليين بالتطير  
والقيافة، مقابل غياب الاستسلام لمشيئة الله والإيمان بالقضاء والقدر،  
عبر استدراج المكون الحيواني (الظبية) في بعدها الجمالي المغيب  
وحضور بُعدها التطيري التشاؤمي، وهو من التقابلات البديعة في بناء  
القول، مع اختصاره وتركيزه؛ فإقصاء البعد الجمالي للظبية كما هو  
معروف تم استبداله ببعد الإنذار والإخبار بالمأساة، وهي طاقة جوهرية  
مضرة في القول، يستقصيها البحث عن الدلالات والمعاني.

## 6 - عندما يبكي الحصانُ صاحبه

تَذَكَّرْتُ مِنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ

سِوَى السِّيفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ<sup>(20)</sup> بَاكِياً

وَأَشْفَرَ مَجْبُوكاً يَجُزُّ عِنانَهُ

إلى الماء لم يترك له الموت ساقياً

لا نبحث في هذا المقام التأويلي عن إعادة بناء معاني قصيدة مالك  
لشرحها أو إفهامها فحسب، وإنما نسعى إلى تبيان بعض الآليات التقابلية  
التي بالإمكان أن تسعف المحللين ودارسي الخطابات ومدرسيها بالأداة  
التحليلية والتأويلية لمقاربة بعض الظواهر النصية عبر تجربتها وتطبيقها.  
إن الاشتغال على النص من هذا المنطلق يظل مفتوحاً وقابلًا للاجتهاد  
فيه حسب النصوص، وحسب توجهات المؤولين واهتماماتهم النقدية  
والمنهجية.

(20) رُدَيْنَةُ زوجة السهمري. كانا يُقَوِّمان القنا.

بوسعنا أن نقف في هذين البيتين عند التقابلات البنائية ثم التأويلية التالية:

| المتذكّر  | مقابل | المتذكّر                           |
|---|-------|------------------------------------|
| الزمن الحاضر المقصود                            | مقابل | تذكرت (الماضي)                     |
| بكاء ما (غير العاقل) .                          | مقابل | بكاء (من) العاقلون                 |
| "وجدت" الغائبة فعليا<br>وحضوريا                 | مقابل | "لم أجد" المختارة                  |
| "لم أجد" (قلّبت لم النافية<br>الزمن إلى الماضي) | مقابل | "أجدُ" (الزمن الحاضر)              |
| بكى ما لا يبكي                                  | مقابل | لم يبك من يبكي                     |
| البكاء المتوهم حاصل                             | مقابل | البكاء الحقيقي منعدم               |
| بكى الحصان المتروك                              | مقابل | بكى السيف والرمح                   |
| ارتواء الفارس غير حاصل<br>دون فرسه              | مقابل | ارتواء الفرس حاصل دون<br>صاحبه     |
| العنان الذي يجره الفرس                          | مقابل | العنان الذي يجره الفارس            |
| الارتواء الوهمي حاصل                            | مقابل | ارتواء الشاعر الحقيقي غير<br>ممكّن |

تقوم في ذاكرة الشاعر عناصر استبدالية (السيف والرمح والحصان) لعناصر غائبة بدءا (الأهل والصحاب) . ثم هذه الصورة الرائعة التي تحمل كل معاني التولي والفجعة، واختلال الأمور لدى الفارس والفرس معا؛ الأول لا يرتوي والثاني يرتوي ارتواء الخائف المتروك الجافل. إن تقابل الافتقاد حاضر بقوة بين الطرفين المالك

الذي لم يعد يملك، والمملوك الذي أصبح دون مالك. غير أن هذه التقابلات الأولية تقابل بدورها انتقالاتا دلاليا في البيت الموالي: ولكن بأكناف<sup>(21)</sup> السُّمَيْتَةِ نِسْوة

عزيز عليهن العثية ما بيا  
وفيه يستدرك مالك ما فاته من أن هناك بالسُّمَيْتَةِ (اسم مكان) نساء يتألمن لما ألمَّ به من مرض، رغم بعده عن الديار فإنه يجد من يعز عليه حاله، ولعلهن نساء القرى التي مر منها مالك وأصحابه. وليس النساء فقط هن من تألمن، وإنما الرجال كذلك تألموا لحاله وهم يسوون لحده، وهو تقابل يفضي إلى تصوير الحالة التي آل إليها مالك من الانهيار والعجز عن المسيرة، ثم الموت والترك.

## 7 - القَبْرُ المَتْرُوكُ

صريعٌ على أيدي الرجال بقفرة  
يُسُوْنُ لحدي حيث حُم قضايا  
ولما تراءت عند مرو منتي  
وَحَلَّ<sup>(22)</sup> بها جمي وحانت وفاتيا  
أقول لأصحابي ارفعوني فإنه  
يقر بعيني أن سهيل<sup>(23)</sup> بدا ليا  
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا  
برايبة إني مقيم لياليا  
أقيما عَلَيَّ اليوم أو بعض ليلة  
ولا تُعجلاني قد تبين شانيا

(21) الجوانب والنواحي.

(22) اختل وهزل.

(23) نجم.

وقوما إذا ما استلّ روعي فهَيَّا  
لي السّدر والأكفان عند فنائيا  
وخطّا بأطراف الأسته مضجمي  
ورُداً على عيني فضل ردائيا  
ولا تحسداني بارك الله فيكما  
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا  
خُذاني فجراني بثوبي إلكما  
فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

يقوم هذا المقطع على تجاذبات ثنائية أخرى عميقة، وفيه يتحول مالك إلى صاحبيه آمرا وناهيا، مفتخرا ومتذكرا، في تسلل تقابلي بديع، سواء في البنية الظاهرة للخطاب أو في فحواها ومن ذلك:

المفرد مقابل المثنى. المخاطب مقابل المخاطب. الأمر مقابل المأمور. النسوة المتأثرات مقابل الرجال الذين يسوون للحد. القفرة الممتدة مقابل اللحد المحدود. المنية مقابل الوفاة (تقابل الترادف). الناهي مقابل المنهي عنه (تقابل طرفي الخطاب). المنادي مقابل المنادى عليه (تقابل طرفي الخطاب). سهيل النجم (موقع الرؤية والحلم) مقابل الأرض (موقع الألم والفجعة). السماوي مقابل الأرضي. الرفع مقابل الإنزال. الإقامة مقابل الرحيل. النجم مقابل الراية ومقابل اللحد. اليوم مقابل الليلة. الاقتياد مقابل الانقياد. الجر مقابل الانجرار. الأمر الحقيقي مقابل الأمر المجازي. السدر مقابل الأكفان. "ارفعوا" مقابل "انزلا"، مقابل "أقيما" مقابل، "لا تعجلاني" مقابل "قوما"، مقابل "هيّا"، مقابل "خطّا"، مقابل "رُداً"، مقابل "لا تحسداني"، مقابل "خُذاني"، مقابل "جُرّاني"، مقابل "قوما"، مقابل "أسمعا"، مقابل "لا تنسيا"، مقابل "بلّغا". وهو تقابل تواتر الأوامر

والنواهي الموجهة إلى المتلقين المباشرين الحاضرين لحظة صناعة الخطاب.

يحمل هذا المقطع الشعري كثيرا من التقابلات البنائية التي تثوي وراءها دلالات كثيرة، وسيتبين للقارئ أن العلاقات الموجودة بين هذه العناصر المتقابلة مختلفة، فهي تقوم على التضاد، أو التماثل، أو التوازي، أو التتابع، أو التجاور، أو السببية، أو الزمن، أو البعضية، أو التواتر، أو التقابل، أو الترادف، أو التكرير، أو تقابل طرفي الخطاب، أو تقابل تركيم أفعال تسير في اتجاه تداولي واحد، الخ<sup>(24)</sup>... لكنها تتساند لشكل المشهد الشعري الذي يروم الشاعر تصويره ونقله إلى المتلقي مباشرة وغير مباشر.

وهكذا فيمكننا القول إن إدراكه للعالم - ساعة احتضاره - شكّته المعاني القائمة على تباين الأبعاد بين المأمول والواقع، بين ما كان يحب أن يرى وما يرى بالفعل.

كان يحب أن يموت بين أهله مقابل موته بقفرة. الإحساس بقرب الأجل (حالة أولى) مقابل اختلال الجسد (حالة ثانية) مقابل حلول الوفاة (حالة ثالثة). إن هذه المستويات المتقابلة سببيا وتراتبيا تُظهر استفحال الأمر. كما أن تقابل الترادف بين: المنية/ الوفاة، وتكرير هذا المعنى يؤكد هذه الحقيقة التي رأى أن لا مفر منها.

---

(24) تكلم إيكو عن الأزواج المتقابلة فحدد البنات المنطقية التالية:

التقابل التناقضي: (حسن / قبيح)، تقابل التكامل: (زوج / زوجة)، تقابل التحويل: (باع / اشترى)، تقابل القياس: (كبير / صغير)، تقابل الاتصال: (الاثنين / الثلاثة / الأربعة)، تقابل الاتصال والتراتب: (ستمتر / متر / كيلومتر)، تقابل العكس: (الجنوب / الشمال)، تقابل التحول عكسيا: (وصل / انطلق)...

انظر كتاب:

U. Eco, Sémiotique et philosophie de langage, traduit par Myriem Bouzahr, P.U.F, Torino, 1984, p.p 113-114.

وتبعاً لذلك يتوجه إلى أصحابه برفعه إلى الأعلى، لأن سهيلاً بدا، وسهيل هذا نجم يمانى لا يُرى إلا في بلاد العرب<sup>(25)</sup>، ومع سهيل تنضج الفواكه. بين سهيل (المكان السماوي) وبين الغضى (المكان الأرضي) تقابل يربط المكانين عنده؛ فالغضى الذي تعذرت رؤيته لبعده المسافة تجلى في سهيل، غير أن هذا الأمر بالرفع إلى الأعلى لا يلبث أن يتحول إلى مقابله النقيض، لأنه لا يأتي بشيء، فيأمرهما بإنزاله إلى رابية، وهي ما ارتفع من الأرض. إن نزوله النهائي يريده في الأعلى الأرضي عند العجز عن العلو السماوي، وهو نزول وإقامة مدى الليالي.

ثم إن الأمر في حقيقته يصدر من ذات أعلى إلى ذات أدنى، غير أنه في النص يتحول من طاقته الحقيقية إلى طاقته الاستلزامية حسب المقام، وهذا هو الأمر الطلبى، والحال نفسه بالنسبة للنداء، فهو يخرج من طاقته الحقيقية إلى طاقته الطلبية، كما هو الشأن لأداة النداء، التي تستعمل في نداء البعيد، واستعملت هنا للقريين رفعا لمكانتهما وقربهما من قلب المنادي.

وهكذا تتأسس المعاني - كما هو واضح - على المستويات والأبعاد المتقابلة بكل العلاقات أو الأسباب الممكنة. كما أن كثيراً من التقابلات تأتي استجابة للمعاني والدلالات التي يستلزمها المقام التواصلى. "أقيماً" مقابل "لا تُعْجِلْني"؛ فيطلب الإقامة يوماً كاملاً أو بعض ليلة، لأنه شبه متيقن أن رحيلهما سيكون لا محالة في الصباح الباكر (الاغتداء). وتتهيء الأكفان (غطاء الجسد) والسدر (غطاء القبر)، والرداء (غطاء العينين)، التراب (غطاء الجسد والكفن)، الأرض الواسعة مقابل القبر الضيق.

ويتابع الشاعر تصوير المشهد النهائي لحياته، طالباً من صاحبيه

(25) ابن منظور، م.م، مادة "سهل".



أخذه وجره إلى القبر، مقابلاً ذلك بحالته يوم كان صعب القياد لا  
ينجر ولا ينقاد. وهكذا يلاحظ القارئ أن فضاءات النص تأسست على  
المعاني المتقابلة، ولذلك يحسن عند تلقيه لها أن تفهم بالنمط نفسه  
الذي بُنيت به، فهو أقصر طريق إلى تمثيلها، بل هو الطريق المستقيم  
إلى فهمها، تبعاً للمنطق ذاته الذي بُنيت به.

وعندما انسدت الآفاق أمام الشاعر في الزمن الحاضر، وضاق  
فضاء الحلم بالمستقبل، تقابلت في ذهنه أيام العجز في الحاضر وأيام  
القوة والشباب في الزمن الماضي، ولو من باب تهدئة النفس، وذكرها  
ذكراً حسناً والتذكير بأمجادها، مسترجعاً نُصْرته للمهزومين وشجاعته  
في الحروب، في انسياب تعبيرٍ وراثي قائم على تصور العالم تصوراً  
مزدوجاً وثنائياً؛ وإن تم ذلك بشكل اختزالي لأن فضاء القول يقتضي  
ذلك ويتطلبه:

## 8 - الصدى وصداه

وقد كنتُ عَطَافاً<sup>(26)</sup> إذا الخيل أدبرت

سريعاً لدى الهيجا إلى من دعانيا

وقد كنت صباراً على القرن<sup>(27)</sup> في الوغى

وعن شمي ابن العم والجارَ وانيا

فَطَوَّرَا تراني في ظلال ومَجْمَع

وطَوَّرَا تراني والعِتَاق<sup>(28)</sup> ركايباً

ويوما تراني في رحي مُتدبرة

تُخرِّق أطراف الرِّماح رِيَاباً

(26) الذي يحمي المهزومين.

(27) القرن: النظير والكفو.

(28) العِتَق: الكرم والجمال والنجابة.

وقوما على بئر الثمينة أنسجما

بها الغرّ والبيض الحان الروانبا<sup>(29)</sup>

بأنكما خلّفتُماني بِقَفْرَةٍ

تَهِيلُ عليّ الرّيح فيها السّوافبا<sup>(30)</sup>

ولا تنسبا عهدي خَلِيلِي بعدما

تَقَطُّعُ أوصالي<sup>(31)</sup> وتَبْلَى عِظامي

وهكذا بوسع المتلقي أن يبني مجموعة من التقابلات، حسب أنماط العلاقات التي تترأى له، فالنحوي يكشف بمعرفته النحوية عددا هائلا من الإمكانات والحالات التقابلية، تعفه في ذلك ذخيرته النحوية. وتظهر للبلاغي بحكم اتساع أدواته البلاغية إمكانات دلالية متقابلة عديدة، لأن كفيات القول والتعير تتم اعتمادا على الدلالات الحقيقية والمجازية، وعلى الإمكانات العديدة التي تمنحها علوم البلاغة في هذا المجال. وصاحب المنطق تتأسس على نظرياته وتصوراتهِ للعالم تقابلات كثيرة، تمنحها وتجليها العلاقات الممكنة بين الأشياء؛ واللغوي الممتلك ل ذخائر لغوية، أو الباحث عن المداخل المعجمية يمكنه اشتغاله بالنصوص والبنى والأساليب من عدد هائل من العتبات التأويلية القائمة على علاقات الترادف، والتضاد، والتماثل، والتراتب والسببية... وهكذا دواليك في كل العلوم والآليات المنهجية والقرائية فبالإمكان تطويعها، وإغناؤها بإستراتيجية التأويل التقابلي. كما أنه بالإمكان الاستفادة من هذه الحقول المعرفية كلها وإدماجها ضمن نسق تأويلي تقابلي واحد، بحيث تسهم البلاغة والنحو واللغة والمنطق، ومناهج قراءة النص، والموسوعة، وذكاءات القراءة في

(29) يرنو: ينظر باستمرار.

(30) ما حملت الرّيح إلى أصول الحيطان.

(31) أوصال جمع وُضِل كل عضو في الجسد على حدة.

اكتشاف أنساق النص المقروء الظاهرة والخفية، وكل ذلك يعزز تجربة التأويل ويغنيها.

من التقابلات الممكن الوقوف عليها في هذا المقطع:

| مالك                   |                            |
|------------------------|----------------------------|
| نفي مضمّر              | إثبات ظاهر                 |
| لا فار بجلده           | عَطَاف (يحمي المنهزمين)    |
| متناقل                 | سريع إلى الحرب             |
| اللامبالاة بالمستغيثين | الإغاثة                    |
| عديم القيمة            | مستهدف في الحرب            |
| ثقيلا على العدو        | خفيفا على الأقران          |
| لا بخيل                | كريم محمود الزاد           |
| العزلة والشح           | الألفة والاستمتاع بالملذات |
| الجبن والإحجام         | الشجاعة والإقدام           |

↓  
المتنفيات

↓  
المُثَبِّتات

بعد هذا المقطع الذي يسترجع مظاهر البطولة في زمن الشباب الذي ولى، وبعد تعزية الذات بهذه الأمجاد والمفاخر، توجه مالك إلى صاحبيه آمرا إياهما بالقيام على بثر السمينة، وإيلاغ الخبر إلى الأفراس الغر والبيض، ولعل منظرها وجمالها وامتلاكه لها مما كان يعتز به، لذلك ذكرها ولم يذكر الناس. غير أن الإشارة إلى الناس حاصلة، ذلك أن فضاء البشر وتجمع الناس لسقي جيادهم معناه

اطلاعهم على الخبر. لكن يحز في نفس مالك بقاؤه مدفونا في فلولات وقفار لا تتحرك فيها إلا الرياح التي تدفع السّوافي (ما حملته الرياح إلى أصول الحيطان) .

إنّ الرياح تحفر وتغطي مثل التذكر والحكي عن الماضي، ولذلك ظل مالك يفكر فيما يمكن أن يقع بعده؛ فالقبر المتروك مدعاة لأن تغطيه الرياح بالأتربة فتمحو معالمه وأثره، فيصبح مجهولاً. ويذكر مالك بشكل استشرافي نظرات الجياد التي سترتوي من بئر الحينة، وهي نظرات رنو عميقة، وكأنها تتأسى على الفارس الذي انتهى أجله بعيداً عن الديار. ويلح على أن يتذكره صاحبه في زمن يأتي بعد البلى الجسدي المتظر وتقطع الأوصال.

تنشأ التصورات والصور في ذهن الشاعر تبعاً لتجاذبات تقابلية عميقة الدلالات، مصورة لأحاسيس مفعمة بالمرارة: "قوما" مقابل "لا تقوما". "أسمعا" مقابل "أكنما". "أسمعا الجياد" مقابل "أسمعا الناس". "خلفتاني بقفرة" مقابل "خلفتاني بين الأهل". "الرياح" مقابل "الرياح". "لا تنسيا" مقابل "تذكرا". "بعدا" مقابل "من قبل". الحياة المتصلة مقابل التقطع والبلى.

إنها تقابلات مؤلدة من بين أخرى ممكنة، تبين أن نظم الكلمات والصيغ يخضع لحظة الإبداع أو القول لاختيارات دقيقة تلائم المعنى المراد التعبير عنه، لذلك فهي تخضع لمنطق الإثبات الصوتي أو الكتابي، مقابل إزالة عناصر أخرى مقابلة أو ثانوية. غير أن البناء الشعري والإيقاعي وما يفرضه من اختزال واقتصاد لغوي، وحذف وطي المعاني يقصي العناصر الزائدة أو التي ستُحلّ بالوزن، ولذلك فكثير من المعاني في الشعر لا تقال وإنما تفهم وتبنى تأويلياً، ومن أهم وسائل بنائها التأويل التقابلي.

## 9 - مالك الذي لا يملك

ولن يعدم الوالون<sup>(32)</sup> بشاً<sup>(33)</sup> يُصيّبهم

ولن يعدم الميراثَ مِنِّي المواليا

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني

وأين مكان البعد إلا مكانيا

غداة<sup>(34)</sup> غدي يا لهف نفسي على غد

إذا أدلجوا<sup>(35)</sup> عني ولُصِبتْ ثاويا<sup>(36)</sup>

وأصبح مالي من طريف<sup>(37)</sup> وتالد<sup>(38)</sup>

لغيري وكان المال بالأمس ماليا

فيا ليت شعري هل تغيرت الرحا

رحا المثل<sup>(39)</sup> أو أمتت بقلج كما هيا

إذا الحي حلُّوها<sup>(40)</sup> جميعا وأنزلوا

بها بقرا حُمّ<sup>(41)</sup> العيون سَواجيا<sup>(42)</sup>

---

(32) بنو العم والأقارب.

(33) الحزن الشديد.

(34) الصباح الباكر.

(35) سارو ليلا.

(36) مقيم.

(37) المستحدث من المال.

(38) المال القديم.

(39) اسم موضع.

(40) نزلوا بها

(41) سود.

(42) سواكن.

رَعَيْنَ وقد كاد الظلام يَجْنُهَا<sup>(43)</sup>

يُصْفَنَ الخُزَامَى مَرَّةً والأَقَابِ<sup>(44)</sup>

وهل أَتْرُك المير<sup>(45)</sup> العوالي بالضحي

بِرُكْبَانِهَا تَعْلُو المِثَانِ الفيافا<sup>(46)</sup>

إذا عُصَب الرُّكبان بين عُنَيْنَ<sup>(47)</sup>

ويولان عاجوا المبقبات النواجيا

يحمل البيت الأول من هذا المقطع كثيرا من المفارقات التي أحس بها الشاعر، فبعده بالنسبة لدافينه قرب، لأنهما سيرتاحان من عبء ثقيل، ومن مريض متهالك لا يقوى على مواصلة الرحلة. يحمل النهي في قولهما له: لا تبعد معنى الدعاء، لكنه لا يصدقه بسهولة، ولذلك يحمل الاستفهام: أين مكان البعد إلا مكاني؟ هذه الطاقة الاستلزامية الدالة على النفي، أي لا مكان أبعد من مكان دفني. أحاسيس طبيعية يشعر بها مالك الذي كان يحلم بالوصول إلى أهله بعد غربة طويلة، ثم يباغته المرض والموت، فيختزل كل معاني وجوده، وما بعده في أبيات هذه القصيدة التي تحمل في طياتها، ككل نص طبعاً، طاقة التقابل المعبر، وطاقة التصريح والتلميح، وقوة البوح والإسرار... فـ"يا" الدالة على الزمن الحاضر في "يقولون" المقصود به سيقولون في الزمن المستقبلي أي بعد موته، فهو يتنبأ بما يمكن أن يقال بعد وفاته، وتبعاً لذلك ينصب تفكيره على لحظة الاستسلام الكبير بمرارة زائدة وتأسف كبير.

(43) يسترها.

(44) نبات له زهر أبيض.

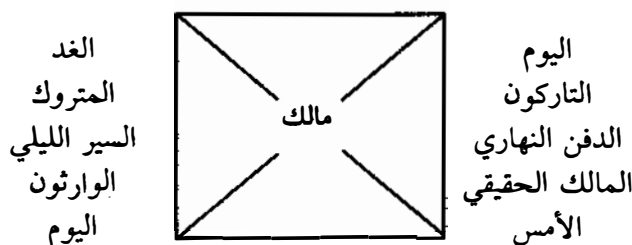
(45) الإبل.

(46) الصحارى.

(47) اسم مكان.

يستشرف مالك لحظات الغد بتحسر عميق، لأنه يعرف أن حمل جسد الميت إلى قرية الغضى، ولمدة طويلة من زمن الرحلة، لا جدوى منه، أو إنه غير ممكن، لذلك فكر في اللحظة التي يُترك فيها مقيما في القفار، فيتفجر هذا الشعور القاسي عبر مجموعة من التقابلات الحاضرة ضمنا في بنية الخطاب: غداة غد مقابل مساء غد. النداء الحقيقي مقابل النداء الحامل لمعنى التحسر واللوعة. غد مقابل غد (التكرير اللفظي). الإدلاج مقابل الإصباح. كنت مسافرا مقابل أصبحت مقيما. أدلجوا (ساروا ليلا) مقابل بقيت مدفونا. كان المال مالي مقابل أصبح المال لغيري. الطريف (المال المستحدث) مقابل التليد (المال القديم). المال البارحة لي مقابل المال اليوم لغيري. أنا الموروث مقابل هم الوارثون.

وهي تقابلات تبرز مدى الجزع الذي شعر به الشاعر ساعة احتضاره، وهو يفكر في صاحبيه اللذين سيدفنانه حتما، ثم يمضون في دجى الليل قبل طلوع الفجر بقليل، وحين يطلع النهار يتحول المال الذي من أجله ترك مالك الغضى إلى الآخرين. نظر مالك بشكل عبثي إلى ما صار إليه حاله، وظل يتدبر شعريا في متناقضات الحياة، ويبقى التقابل في حالاته المختلفة جوهرها.



بين الأمس واليوم والغد حدثت وتحدثت (زمن التجربة) أشياء مريبة في حياة مالك، الذي تحول إلى مالك الذي لم يعد يملك، وكل هذا الذي حدث ظل الشاعر ينظر إليه نظرة توجس مصحوبة بالأحزان

واللوعة البالغين. ليقتنع في الأخير بانحباس وتوقف حركة الزمن في حياته، وعجزه عن العودة إلى الزمن الذي راح، وما يقابله من الأمكنة التي ظلت مبهجة مشرقة في حياته، وقد تم التعبير عن ذلك كله في بنيات نصية ذات أبعاد تقابلية نصية وأخرى بينها التأويل.

|                                 |       |                                |
|---------------------------------|-------|--------------------------------|
| التمني الظاهر                   | مقابل | التلف                          |
| السؤال                          | مقابل | اللاجواب                       |
| التغير                          | مقابل | عدم التغير                     |
| الرحى (مكان)                    | مقابل | رحى المثل (مكان) مقابل (فلج) . |
| حلول أهل الحي                   | مقابل | انصرافهم                       |
| بقر بعيون سود ساكنة             | مقابل | نسوة سود العيون جميلات         |
| رعي البقر في المساءات الجميلة   | مقابل | مرح أهل الحي في تلك المساءات   |
| ترك العيس (الإبل البيض) اختيارا | مقابل | ترك العيس رغما عنه             |
| الضحى                           | مقابل | الظلام                         |
| جمال البقر في العشيات           | مقابل | جمال العيس بالضحى              |
| أترك العيس                      | مقابل | أترك ركبائها                   |
| عنيزة (مكان)                    | مقابل | بولان (مكان)                   |

تفيض هذه التقابلات بالحسرة على الدنيا المتروكة بناسها وأمكتها الجميلة وعيها وبقرها وملذاتها، أشياء يحملها التذكر وتمر على قلب الشاعر المحتضر الذي يتولى عنها غير ظافر بأي شيء، ليسترد الحنين إلى أهله وأمه ويخصها بمقطع كأنه رسالة موجهة إليها:

فيا لَيْتَ شِعْري هل بَكَّتْ أُمُّ مالِك

كما كُنْتُ لو عالوا نَمِيك باكِيا

إذا مِتُّ فاعتادي القبور وَسَلِّمي

على الرَّمْسِ أَسْقِيَتِ السَّحَابِ الغوايا



على جَدَدٍ قَدْ جَرَّتْ الرِّيحُ قُوَّةَ

ثُرَابًا كَسَحَقِ الْمَرْبَانِيِّ <sup>(48)</sup> هَائِبًا <sup>(49)</sup>  
رَهِينَةُ أَحْجَارٍ وَتُرْبٍ تَصَمَّمَتْ

قَرَارُتُهَا <sup>(50)</sup> مِنْ عِظَامِ الْبَوَالِيَا

لا يقتصر بناء المعنى إنتاجا وتأويلا على البنيات الجزئية داخل الأبيات، وإنما يتشكل كذلك من خلال المقاطع والبنيات الدلالية الكبرى في النص، وبإمكاننا أن نرصد هذه التقابلات من بداية النص: بنية الحنين إلى الغضى مقابل بنية الندم على الخروج إلى خراسان، مقابل بنية الإحساس بقرب الأجل، مقابل التفكير في المستقبل القريب وما يطلبه من صاحبيه، مقابل بنية تذكر أمجاد الماضي، مقابل بنية التحسر والضيق من الآتي، مقابل بنية الترك والمتروك، مقابل بنية الأم الباكية، مقابل بنية المشهد البكائي للأهل.

|                               |
|-------------------------------|
| بنية الحنين                   |
| بنية التأسف                   |
| بنية الاحتضار                 |
| بنية استشراف المستقبل         |
| بنية التوسل إلى الأصحاب       |
| بنية التذكر                   |
| بنية التحسر والتبرم من الحاضر |
| بنية التارك والمتروك          |
| بنية التباكي                  |

وهي بنيات تتقابل تقابل تكامل وتنام؛ إنها بمثابة لوحات

(48) ثوب من الخز.

(49) من هبا يهبو.

(50) بطن الوادي حيث يستقر الماء.

ومشاهد، كل مشهد يقابل الآخر، والشاعر في تقابل مع كل المشاهد، يفحصها داخل قلبه ومخياله، والقارئ يقابل النص، ويراقب تقابل الشاعر مع المشاهد كلها.

أخيرا -وكما ذكرنا- فإن مقطع الحديث عن الأم انتقال تقابلي للمقطع موضوع الترك والمترك. وفيه ثنائيات وتقابلات:

الابن (مالك) مقابل أم مالك. الذكورة الراحلة مقابل الأنوثة الباقية. النعي القائم مقابل التبشير بالقدوم (وهو غير حاصل). البكاء الذي لم يتم مقابل البكاء الذي سيتم. "هل بكت؟" مقابل "ستبكي حتما". بكاء أم مالك مقابل بكاء مالك (تقابل الشبه). أنا مقابل هي (على سبيل الالتفات). "اعتادي" (فعل طلبي) مقابل سَلَمي (فعل طلبي كذلك). الأمر العاجز مقابل المأمور القادر.

الداعي بالمقيا (الميت) مقابل المدعو له بالمقيا (الحي). ثم تتواتر صورة القبر ومالك صاحب القبر الغريب، علما أن هذا التقابل يظل النواة التي تأسست عليها القصيدة، وانبثقت عنها حسرة مالك بسبب اغترابه حيا مقابل اغترابه ميتا. لذلك يتوجه إلى صاحبيه في المقطع الموالي طالبا الإخبار بقصته وبطولته ومطالباً بذكره الذكر الجميل. ولعل مأساة مالك وتأثر صاحبيه بما جرى له كان سببا حقيقيا كافيا لرواية القصيدة والاحتفاظ بها، ثم نقلها للناس لتشر بينهم. وتلك حياة أخرى لمالك، فكم من مالك كان يملك أكثر مما مَلَكَ مالك، لكن التاريخ لم يحتفظ له بذكر حسن، ونص بليغ مثلما صنع ابن الريب مع التاريخ والأدب ومع نفسه.

## 10 - نسوة لو شَهِدَنِي

فيا صاحبا إما عَرَضْتُ فَبَلَّغَا

بني مازن والريب أن لا تلاقيا

وَعَرَّ قَلُوصِي فِي الرِّكَابِ فَإِنَّهَا  
سَتُقْلَقُ أَكْبَادًا وَتُبْكِي بَوَاكِيًا  
وَأَبْصَرْتَ نَارَ الْمَازِنِيَّاتِ مَوْهِنًا  
بَعْلِيَاءَ يُثْنِي دُونَهَا الطَّرْفَ رَانِيًا  
بَعُودَ النَّجُوجِ<sup>(51)</sup> أَضَاءَ وَقُودَهَا  
مَهَا فِي ظِلَالِ السُّدْرِ حُورًا جَوَازِيًا  
غَرِيبَ بَعِيدِ الدَّارِ ثَاوٍ بِقَفْرَةٍ  
يَدَ الدَّهْرِ مَعْرُوفًا بِأَنْ لَا تَدَانِيَا  
أَقْلَبَ طَرَفِي حَوْلَ رَحْلي فَلَا أَرَى  
بِهِ مِنْ عَيُونِ الْمُؤْنَسَاتِ مُرَاعِيَا  
وَبِالرَّمْلِ مِنَّا نِسْوةً لَوْ شَهِدْنِي  
بَكِينَ وَقَدَّيْنِ الطَّيِّبِ الْمَدَاوِيَا  
وَمَا كَانَ عَهْدَ الرَّمْلِ<sup>(52)</sup> عِنْدِي وَأَهْلِهِ  
ذَمِيمًا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَّغْتَ قَالِيَا<sup>(53)</sup>  
فَمِنْهُنَّ أُمِّي وَابْتَتَايَ وَخَالَتِي

وباكية أخرى تهيج البواكيا  
في هذا المقطع الختمي يوصي مالك صاحبيه بالتبليغ، تبليغ الخبر  
عندما عجز مالك عن البلوغ بجسده وروحه، ويمكن بناء التقابلات  
التالية: المنادي مقابل المنادى عليه. أداة نداء البعيد مقابل استعمالها  
لل قريب دلالة على منزلتهما في نفسه وقربهما. مالك لا يصل أهله  
(جسدا) مقابل الخبر يصل (صورة الجسد) . بني مازن مقابل بني

(51) عود الطيب يُتَبَخَّرُ بِهِ.

(52) قرية الشاعر.

(53) قلى: بمعنى ترك وهجر.

الريب. التلاقي المستحيل مقابل اللا تلاقي الحاصل. تعرية القلوص مما تحمل عليه لأن في إزالة الرّكاب عنها سيمياء وعلامة على أنها فقدت صاحبها، وعندما يراها الأهل دون حمولة ودون راكب، فذلك علامة على الفقد الأكبر والعودة الخاسرة، عودة الناقة وحيدة دون صاحبها. مقابل هذا المشهد المفجر لمشاعر البكاء، يتطلع مالك إلى ما يبهج النفس ويعيد لها اعتبارها، باحثا عن عيون المؤنسات فلا يجد من كل ذلك شيئا، ليتهي إلى هذا التقابل التتبعي: الغريب/ مالك. البعيد عن الدار/ مالك. المقيم بقفرة/ مالك. إقامة مالك/ طول الدهر. طول الدهر/ لا تداني. طَرَف مالك / عيون المؤنسات الغائبات. بالقفار لا عيون تؤنس أو تبكي/ بالرمل عيون تؤنس وتبكي. الباكية المهيجة/ الأم المفجوعة/ الخالة/ البنتان/ مالك المحبوب/ أهل الرمل المحبون لمالك/ الرمل المحبوب/ الزمن المحبوب.

تحضر هذه الذوات كلها في ذهن الشاعر بشكل تقابلي، عليها تحقق ألفة مبحوثا عنها، أنسا ما، حضورا، تباشير حياة، ولكنها لا تتأتى ولا تنفعل ولا تفعل وقتها. لقد انفعل مالك شعريا باللحظة بكامل تفاصيلها، والمؤكد أن الموت قد أمهله حتى أبدع نصا من نفس الشعر العربي في رثاء الذات، ومن المؤكد أن مالكا لم يحفل، بالكيفية التي ستقرأ بها قصيدته، ولا الغايات التأويلية والتحليلية التي ستكون موضوعا لها ذات يوم مثلما فعلنا أو فعل غيرنا<sup>(54)</sup>، وإخضاعها للتجريب المنهجي.

(54) انظر في هذا الصدد محمد فتوح أحمد، جدليات النص، عالم الفكر، المجلد الثاني والعشرون، 1994، ع. 3 و4، ص. 39-64. وكذا عبد العزيز السبيل، ثنائية النص، قراءة في رثائية مالك بن الريب، عالم الفكر، 1998، مج. 27، ع. 1، ص. 63. وقد ركزت الدراسات على الجدليات والثنائيات في النص، وقد نهجنا منطلقا قريبا منها وهو التقابلات، في إطار مشروع تأويلي موسع نطمح إلى تحقيق بعض ملامحه استنادا إلى مجموعة من التصورات المقترحة، وكذا تطبيقها على عدد من النصوص والخطابات.

من جهة أخرى فقد حاولنا إبراز هذه التجربة الإنسانية وتقديمها للقراء أو تذكيرهم بها، وبكيفية القول الشعري وأنماطه، غير أن هدفنا كان -كذلك- تقديم تجربة في القراءة والتلقي قائمة أساسا على التقابلات، ودعما للتصور الذي تكلمنا عنه من قبل، ومن أجل إمداد المتلقين عموما، والمدرسين والطلاب خاصة بروح قرائية منطلقها الثنائيات والتقابلات التي تتأسس عليها الحياة والوجود، ثم يتأسس عليها بعد ذلك القول الشعري في أبعاده المختلفة

ولذلك من الطبيعي - في تصورنا- أن يبنى عليها الفهم والتأويل باعتباره تجربة لاحقة لمنشأ القول وإمكانياته المختلفة. وقد كشفنا من خلال القراءة المنجزة أن بناء التقابلات تتحكم فيه أدوات القارئ المؤول ومرجعياته وذخيرته، وهو مدعو لتطعيم طريقته بملح إضافي يغني فهمه، ويكسبه عمقا وجوديا يعيش معه التجربة الإبداعية في مختلف مناحيها وأبعادها الدلالية. ولا شك أنه سيجد نفسه في تقابل حقيقي مع عدد هائل من النصوص مات أصحابها، أو لا زالوا على قيد الحياة. ومن ثمة فهو يعيد لها النظام التقابلي الذي تقوم عليه الحياة أصلا، ثم ينظم ذلك ضمن حياة جديدة من التفاعل التأويلي والقرائي، بل أكثر من ذلك يجد نفسه مقابلا لعدد من البوابات والموازيات السياقية والثقافية ولا يسعه إلا محاورتها، وفتح أقفالها لإغناء ما يكتب، أو ما سيقدمه للآخرين الذين يشكلون بدورهم مقابلين لما كُتب لهم ونحن لا نعرف عددهم ولا صورهم ولا مواقعهم الاعتبارية. وعلى هذا يتأسس الوجود والأدب وتأويله، فكل نظام من القول يقابله نظام مثله، وتتناسل التقابلات وتتفاعل وتتطور، وذلك سر بهجة الحياة من حولنا واستمرارها. ذاك هو سر صناعة المعنى عبر تقابلاته النصية، وسر بلاغته عبر تجلياته الخطابية.

## الفصل الرابع

### تقابلات النص وبلاغة الخطاب

#### الشعري الحديث

##### قصيدة "نسر" لعمر أبي ريشة<sup>(1)</sup> تمثيلاً مقاربة تأويلية تقابلية

#### تقديم

تدخل في شعرية النص عناصر كثيرة، تطرق إليها النقد الأدبي باستفاضة، وتوجهت عناية النقاد-خاصة- إلى مقارنة المكونات اللغوية، والتركيبية، والأسلوبية، والرمزية، والبنىات الاستعارية والمجازية، وكل ما يتعلق بالصورة الشعرية، وتعدد المعاني والقراءات، وغير ذلك؛ وقلما تطرق البحث النقدي إلى مستوى حاضر بقوة في جمالية الخطاب الشعري وبنائه، وهو البنىات التقابلية التي تؤطر العناصر السابقة، وتحكم في حضورها بشكل نسقي قوي. إن بنية التقابل هي المادة الذهنية الأولية، أو المعنى الأساس، أو البنية التحتية التي تبنى عليها الخطابات عامة، لهذا نحاول إعادة الاعتبار لهذا العنصر الظاهر/ الخفي الذي يمكن النصوص، ويتحكم في صناعتها. كما أن إدراك جمالياته ودوره المحوري في الخطابات الذهنية الأولية للمعاني يهدي القارئ،

---

(1) عمر أبو ريشة (1910 - 1990م)، شاعر سوري شهير، ولد في منبج بسوريا، وتلقى تعليمه الابتدائي في حلب، وأتم دراسته الثانوية في الجامعة الأمريكية، ثم تابع دراسته بانجلترا عام (1930م). يعتبر عمر أبو ريشة من كبار شعراء وأدباء العصر الحديث، وله مكانة متميزة في ديوان الشعر العربي الحديث. وشعره يتوزع ما بين المنحى القومي والمنحى الرومانسي.

ومحللي الخطاب عامة، إلى أدوات واضحة لاستكشاف المعاني  
وصداها، صداها داخل النص الشعري مثلاً، وصداها في الحياة ككل،  
وفي سياقاتها الفعلية والخطابية المفترضة، ثم صداها في تجربة الشاعر،  
وتطور الشعر ومسارات تحولاته، وصداها أخيراً في القراءات المقدمة  
له، ومنها القراءة التي ننجزها الآن.

النص<sup>(2)</sup>:

فَسَّرْ

أصبح السفح ملعباً للنسور

فاغضبي يا ذُرَى الجبال وثوري

إنَّ للجُرحِ صِحةً فابغيها

في سماع الدنيا فحيح عبر

واطرحي الكبرياء شِلْوا مُدَمَّى

تحت أقدام دَهْرِكَ الكبر

لملمي يا ذُرَى الجبال بقايا السر

وارمي بها صدور العصور

إنه لم يعد يُكْحَلُ جَفَنَ النَّجْمِ

تيهاً يريشه المثور

هَبَّجِرِ الوَكْرَ ذاهلاً وعلى عَيْنِهِ

شَيْءٌ من الوداع الأخير

تاركاً خلفه مواكب سحب

تتهاوى من أفقها المسحور

(2) عمر أبو ريشة، الديوان، دار العودة، بيروت، ط. 1، 1971، مج. 1، ص. 158-

كَمْ أَكَبْتُ عَلَيْهِ وَهِيَ تُنْذِي  
فَوْقَهُ قُبْلَةَ الضَّحَى الْمَخْمُورِ

\*\*\*

هَبَطَ السَّفَحَ طَاوِيَا مِنْ جَنَاحِيهِ  
عَلَى كُلِّ مَطْمَحٍ مَقْبُورِ  
فَبَارَتْ عَصَائِبُ الطَّيْرِ مَا بَيْنَ  
شُرُودٍ مِنَ الْأَذَى وَنَقُورِ  
لَا تَطِيرِي جَوَابَةَ السَّفَحِ فَالنَّسْرِ  
إِذَا مَا خَبَرْتَهُ لَمْ تَطِيرِي  
نَسَلَ الْوَهْنُ مِخْلَبِهِ وَأَذْمَتْ  
مَنْكَبِيهِ عَوَاصِفُ الْمَقْدُورِ  
وَالْوَقَارُ الَّذِي يَشِيعُ عَلَيْهِ  
فَضْلَةُ الْإِزْتِ مِنْ سَحْقِ الدُّمُورِ

\*\*\*

وَقَفَ النَّسْرُ جَائِعًا يَتَلَوَّى  
فَوْقَ شُلُوٍ عَلَى الرِّمَالِ نَثِيرِ  
وَعِجَافُ الْبُعَاثِ تَذْفَعُهُ  
بِالْمِخْلَبِ الْغَضُّ وَالْجَنَاحُ الْقَصِيرِ  
فَسَرَتْ فِيهِ رَغْشَةٌ مِنْ جُنُونِ  
الْكَيْسِ وَاهْتَزَّتْ هَزَّةً الْمَقْرُورِ  
وَمَضَى سَاحِبًا عَلَى الْأَفْقِ الْأَغْبَرِ  
أَنْقَاضُ هَيْكَلٍ مَنخُورِ

\*\*\*



وَإِذَا مَا أَتَى الْغِيَابَ وَاجْتَازَ  
مَدَى الظَّنِّ مِنْ ضَمِيرِ الْأَثِيرِ  
جَلَجَلَتْ مِنْهُ رَعَقَةٌ نَشَتْ الْأَفَاقُ  
حَرَى مِنْ وَهْجِهَا الْمُسْتَطِيرِ  
وَهْوَى جُثَّةٍ عَلَى الذُّرْوَةِ الشَّمَاءِ  
فِي حُضْنٍ وَكْرِهِ الْمَهْجُورِ  
أَيُّهَا النَّسْرُ هَلْ أَعُودُ كَمَا عُدْتُ  
أَمْ السَّفْحُ قَدْ أَمَاتَ شَعُورِي

بوسع إستراتيجية التقابل - التي وضعنا مستوياتها من قبل - أن  
تمد مقارنة قارئ هذا النص بأنواع من التقابل، وهي بمثابة مفاتيح  
لولوج عوالم المعنى، منها: التقابلات المؤطرة، التقابلات الفرعية  
داخل النص: التقابلات الخلافية، والنظرية، والنقيضة، وغيرها. تقابل  
النص والعنوان، تقابل المعاني، تقابل الحالات والوضعيات، التقابلات  
النحوية، التقابلات البلاغية، التقابلات الإيقاعية، تقابل مواقع الشك  
ومواقع اليقين...

تتضمن التقابلات المؤطرة: تقابل النص والسياق، مواقع القارئ  
الاعتبارية ومواقع المنتج الاختيارية، النص والتاريخ، النص مقابل  
نصوص أخرى موازية، تقابل النص والموسوعة والمعرفة الخلفية، تقابل  
كلمات النص والمواد المعجمية الموسعة، تقابل النص ومعطيات من  
حياة منتج، وكذا القراءات التأويلية السابقة له.

على أساس هذه الخصوبة البنائية والتأويلية التي يمنحنا إياها  
التقابل، فإن دور القارئ يتمثل في الربط والتنسيق، وملء بياضات  
النص وإشباع الدلالات. فتح بوابات العبور ومراقبة المعابر والطرق  
السَّيَّارة للمعاني الرابطة بين النص وموازيا ته ومراجعته. إن إجراءات

التقابل الأولية لفهم التجربة الشعرية في قصيدة "نسر"، يمكن أن تنطلق من الأرضية الرومانسية التي يمثلها هذا الاتجاه الأدبي بخصائصه الموضوعية والفنية والجمالية، مقابل خصائص التجربة الإحيائية التي عمل على تجاوزها لغة وموضوعات وصورا ومقاصد وغايات فنية؛ لأن من شأن الإلمام بمواصفات الظاهرة الأدبية في تحولاتها أن يعمق تجربة القراءة، ويؤسس لزاوية تلقى مناسبة. كما يسمح هذا المدخل القرآني للدارس المعلم بالإفادة أو المتعلم بالاستفادة أن يدرك هذه التقابلات المؤطرة: الشعر الإحيائي مقابل الشعر الرومانسي، الإتياع مقابل الإبداع، ترديد الماضي وقيمه مقابل البحث عن قيم جديدة، الاحتفال باللغة القديمة مقابل البحث عن معجم جديد، النسق التعبيري القديم مقابل النسق التعبيري الجديد، مادة الصورة الشعرية القديمة وخصائصها مقابل مواد الصورة الشعرية الحديثة ومواصفاتها، وغير ذلك من التقابلات التي تضيء التجربة الشعرية الحديثة وتجلي أبعادها. وحسبنا التمثيل إذ ليس المقام مقام تحليل، فالأفق التصوري لاشتغالنا ينحو نحو الكليات ولا يقارب التفاصيل إلا على هذا السبيل.

من التقابلات الكبرى التي تمهد للقراءة: تقابل حياة الشاعر/ حياة النص ومعانيه؛ فمعرفة السمات المميزة لحياة صاحب النص واتجاهه الأدبي، وأهم الوقائع الحياتية تقع ضمن المداخل الحقيقية لفهم حياة المعاني في النص بشكل دقيق.

ولنقف الآن عند بعض الإمكانات التأويلية التي يسمح بها العنوان استنادا إلى التقابلات الافتراضية والتصورية التي تمدنا بها كلمة "نسر":

نسر "إنساني" مقابل نسر حيواني، نسر المنفوح مقابل نسر الأعالي، نسر حي مقابل ميت، نسر معرفة مقابل نسر نكرة، نسر مذكر مقابل نسر مؤنث، نسر قوي مقابل نسر ضعيف، نسر مفرد مقابل نسر جمع، نسر

حقيقي مقابل نسر رمزي...

لا شك أن هذه الإمكانيات وغيرها تتوارد على ذهن القارئ، وهو يتفحص الاحتمالات التي يسمح بها الدال "نسر". هذه الافتراضات تمكن القارئ من إدراك المدلولات الواردة على الذهن، مقبولة أو غير مقبولة، لكنها محتملة وقائمة<sup>(3)</sup>، إنها سيناريوهات تأويلية متشعبة، سيتم الاحتفاظ بها، فيما بعد، إذا أيدها المسار الدلالي لنمو النص.

بعد تأمل هذه التقابلات وفق مسار افتراضي تأويلي، تتضح اتجاهات المعنى شيئاً فشيئاً، وتنتهي بتكوين القارئ لأفق تصوري محدد، يتأكد أكثر أو يُنفى جملة وتفصيلاً، أو يستبدل عند قراءة المطلع، ثم يُتناول بدوره تناولاً تقابلياً، مما سيضفي على القراءة طابع التشعب والاعتناء؛ لأنها تجربة قائمة على الافتراض والتخمين والحدس الدلالي؛ تثبت بعدها احتمالات دلالية دون أخرى تبدو بعيدة ولا ترجح بأي مرجح نصي أو سياقي، وهكذا دواليك.

تنمو القراءة التقابلية وفق مسار شجري تشعبي، ثم توسع القراءة وتدعم الأغصان والفروع الملائمة، والمنجمة مع الجسد الدلالي للنص، ومقابل ذلك تُترك الأغصان أو الفروع غير الجديرة بالبقاء (يابسة وموحشة)، لأنها تبدو غير متجانسة مع أغصان النص وفروعه وثماره. ويمكن لنا أن نتصور القراءة على أنها كائن حي ينمو، ويتطور، ومع هذا التطور والنمو تستمر العناصر القادرة على البقاء حية دون غيرها، كما

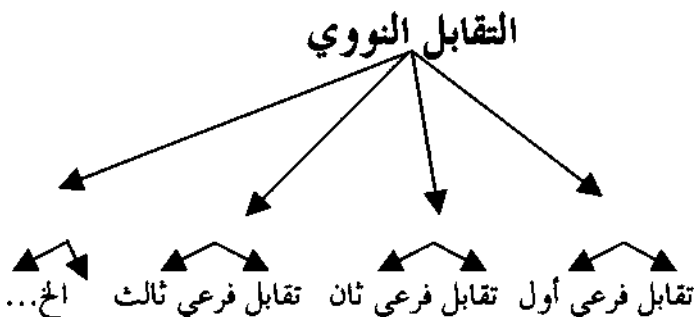
(3) أشار "دو سوسير" إلى أن الكلمة الواحدة تثير في الذهن كل ما هو قابل لأن يرتبط بها بشكل طبيعي، أو بسبب من المصاق الكلامي الذي وُظفت فيه. انظر في هذا الصدد:

O. Ducrot/T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, 1972, p.327

وانظر كذلك ما يتعلق بالافتراضات المعجمية والوجودية عند فرانسوا راستي:  
Francois Rastier, Sémantique interprétative, Ed. PUF, Paris, 1987, p.230.

يمكن أن ننظر إلى النص بدوره على أنه شجرة دلالية لها جذع تتأسس عليه، ولها أغصان وفروع وثمارها هي المعاني.

إن جذع النص هو التقابل النووي، الذي تتفرع عنه باقي النوى الدلالية وتشعب. وفيما يتعلق بالنص الشعري فإن البيت المطلعي في معظم الأحيان يفضح سرية النص، ويشكل القاعدة الدلالية التي تُبنى عليها اللواحق والفروع، (الصدقة مقابل العداوة) مثلاً، أو (الحياة مقابل الموت)، أو (الإيمان مقابل الكفر)، أو (الامتلاك مقابل الافتقار)، أو (العز مقابل الذل)، أو (تجربة في الحاضر مقابل تجربة في الماضي) أو غيرها.



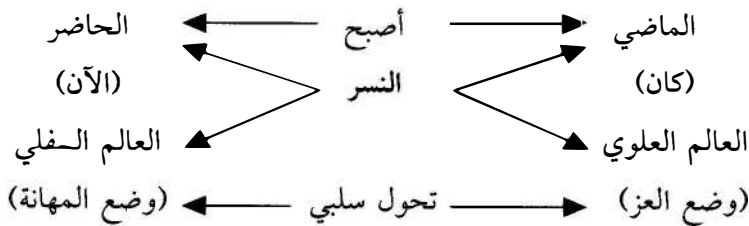
تجدر الإشارة إلى أن قراءة المطلع، والقراءة الأولية الاستكشافية للنص تمكن القارئ الناقد أو القارئ المدرس أو المتعلم، من تشكيل هذا التقابل المركزي الكلي (النووي).

إن أساس التقابلات القرائية هو التساند بين العناصر الحاضرة في النص والعناصر الغائبة (السياق مثلاً)، فهي تحضر بدءاً وإن كانت خاطئة، وذلك لإحداث تمثيل أفضل للمعنى. وهكذا بالإمكان أن نتوقف عند مجموعة من التقابلات الجزئية انطلاقاً من التقابل المركزي في المطلع:

أصبح السطح ملعباً للنور

فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري

يعلن البيت الأول عن تحول مفاجئ سلبي لا يقبله الشاعر، حيث أصبحت النسور في السفوح؛ ومن ثمة يطلب من القمم أن تغضب وتثور على هذا الوضع. فما هي التقابلات الظاهرة والخفية التي تأسس عليها هذا المعنى لحظة إنتاجه؟ بإمكاننا أن نكشف عن ذلك من خلال الخطاطة التالية:



بإمكاننا أن نكشف تحكم التقابل في صناعة المعنى من خلال التقابلات الاستيعابية:

(السفوح مقابل القمم)، (اللعب مقابل الجدد)، (الغضب مقابل الهدوء)، (الغضب مقابل الثورة)، (الأمر مقابل المأمور)، (المنادي مقابل المنادى)، (الأمر الحقيقي مقابل الأمر الاستلزامي)، (السبب مقابل النتيجة)، (الإنساني مقابل الطبيعي)، (الخبر مقابل الإنشاء) ...

تكشف هذه التقابلات عن تشكل الدلالة في وعي الشاعر، واختياره مكونات معجمية وتركيبية دون أخرى للتعبير عن مراده. إن عملية الاختيار والاستبدال هي سر صناعة المعنى الشعري، خاصة وأن مجال القول مقيد بالوزن والقافية، وهو ما يجعل المعنى الشعري مختزلاً وغير مكتمل، لأن فضاء الشعر هو فضاء معنى وجمالية، اقتصاد لغوي وإيحاء لا مجال تقرير وتفصيل ونشر.

ولو عمقنا النظر، وتجاوزنا المستويات التي اعتاد النقد الوقوف عندها، من نحو وبلاغة وانزياح وغيرها، لاكتشفنا - بقليل من التمعن -

أن التقابل الصناعي (البنائي) الذي يقصده المنتج، هو الجامع والمؤطر الخفي الذي يتحكم في تشكل النص. خاصة إذا كان الشاعر على وعي به، متحكما في إدارته أثناء الكتابة أو إعادة الكتابة.

تقوم التجربة الشعرية الحديثة عند كثير من الشعراء على صناعة التقابل، وهي تُكسب النص جمالية خاصة، وسحرا أخاذا يثير القارئ، ويدخله في رحلة البحث عن أسرار شعرية النص؛ ونص أبي ريشة خير شاهد على أن الكتابة الأدبية تمتلك أداة بليغة لصياغة المعنى وهي التقابل.

إن النص الشعري يقدم للقارئ أداة قرائية قائمة على التقابل:

جمالية شعرية                      التقابل                      جمالية تأويلية

وهكذا يمكن تجميع التقابلات الفرعية في تقابل مركزي نووي يتنظر تميحه وتوسيعه في القصيدة، وهو قائم على التحول من القوة إلى الضعف، من الجد إلى اللعب، من العز إلى الهوان.

إن للجرح صِيحَةً فابْعَثِهَا

في سَماع الدنيا فحيح سَعير

يقوم التقابل الشعري في هذا البيت على تقرير حالات، والبحث عن إمكانات. واستنادا إلى الاشتغال على المداخل المعجمية يمكن تحديد المستويات التقابلية التالية: (أصبح السفح ملعبا مقابل اغضبي)، (للجرح صيحة مقابل ابغيها)، (ذات مُلاحظة عاجزة مقابل قوة مفترضة في الجبال)، (الجرح مقابل المجروح)، (الجرح الحقيقي مقابل الجرح المعنوي)، (الجرح الجديد مقابل الجرح القديم)، (العطب مقابل السلامة)، (الجرح الصامت مقابل الجرح الصائح)، (الحقيقة مقابل المجاز)، (الصيحة للإنسان مقابل الفحيح للأفعوان)، (السعر الحاضر مقابل البرودة الغائبة) ...

لعل القارئ سيكتشف أن نمو النص يسير بشكل تقابلي، لأن بنية التقابل تحكم في شكل المعاني والأفكار أثناء التخاطب، كما أن التقابلات، عموماً، اختزال للمكونات والأبعاد التي تحضر في الكون والوجود في بعده المادي والمعنوي.

واطرحي الكبرياء شلوا مُدْمَى

تحت أقدام دهر ك الكير

سيطول بنا المقام لو بحثنا في التقابلات الحاصلة بين الأبيات، على مستوى اللغة والتراكيب النحوية والدلالة، ونكتفي بالإشارة إلى بعضها لنبين كيف تتوازي البنيات عبر مجموعة من العلاقات لتخلق جمالية شعرية (المعطوف-ابعشي- مقابل المعطوف عليه بالواو -اطرحي-)، (الطرح مقابل الاحتفاظ)، (الكبرياء مقابل التواضع)، (شلو- وهو العضو- مقابل كل الجد)، (الجزء مقابل الكل)، (مُدْمَى مقابل غير مُدْمَى)، (تحت مقابل فوق)، (أقدام مقابل أيدي)، (الدهر الكير مقابل الدهر الصاحي)، (الطراح-الجمال مقابل المطروح-الكبرياء)، (الضمير المستتر مقابل الجبال)، (الأمر بالطرح-الشاعر مقابل المأمور بالطرح-الجبال)، (الطرح الممكن مقابل الطرح المجازي)، (الاستجابة الممكنة مقابل الاستجابة المستحيلة) ...

إن القراءة التقابلية تسير بشكل تفتيتي، وتحاول إعادة القول إلى عناصره الأولية، فُتَبِّين كيف يبنى على مستوي الذهن، من حيث كل ما يتوآرد عليه، ثم يحصل اختيار عناصر دون أخرى، تبعاً لمقصدية المنتج. وهو ما يسهم في فهم النتاج الأدبي وتذوقه، والتجواب معه.

وهكذا، فإلى حدود البيت الثالث، لا زالت الحركة في النص تسير في اتجاه سلبي، سواء من جهة النسر أو من جهة الجبال (عدم القيام بالفعل)، أو من جهة الشاعر (المتوجّه بالأمر إلى غير قادر على الفعل). ويمكن استخلاص التقابل الضمني التالي: البنية الدلالية الحاضرة:

النسر — حركة سلية - الجبال — حركة سلية - الشاعر — حركة سلية (حاصلة)، مقابل البنية الدلالية الغائبة: النسر — حركة إيجابية - الجبال — حركة إيجابية - الشاعر — حركة إيجابية (غير حاصلة) .

تنضوي الحركات السلية ضمن الزمن "السَّكِر" - كما ينعتة الشاعر- مقابل الحركات الإيجابية ضمن الزمن "الصاحي"، لتظل عناصر التجربة السلبية حاضرة ومتنامية، وهي التيمة التي يسعى الشاعر إلى تثبيتها بناء على مقصديته وتصوره لوظائف الشعر.

لَمَلِمِي يَا ذُرَى الْجِبَالِ بِقَايَا النَّسْرِ

وارمي بها صدور العصور  
تتحكم في شعرية هذا البيت مجموعة من التقابلات الظاهرة والخفية، والتي نطلق في الوقوف عليها من بنيات معجمية وتركيبية<sup>(4)</sup>:  
(اللملمة مقابل للتشيت)، (نداء البعيد مقابل نداء القريب)،  
(البقايا مقابل الأصل)، (ارمي بها (خطاب موجه للجبال) مقابل لا ترمي بها)، (الرمي الحقيقي مقابل الرمي المجازي)، (صدور العصور: مضروبة مقابل الجبال ضاربة)، (فعل إهانة العصور مقابل فعل تكريم العصور) ...

إنه لم يعد يُكْحَلُ جَفْنُ النَّجْمِ

تيها بریشه المَشُور  
نحاول استرداد كثير من العناصر الخفية التي تنبني عليها شعرية القصيدة، لتجليتها عبر تقليب المعاني على وجوهاها، حتى تتبين عبر نقائضها أو مماثلاتها: (كان يكحل جفن النجم مقابل لم يعد يكحل جفن النجم)، (التعبير بالكناية مقابل المباشرة في القول)، (العلو والتباهي والجمال مقابل المسقوط)، (المزَّين: النسر مقابل المَزَّين: النجم)،

(4) يظل "التأويل المعتمد على اللغة هو الشكل التأويلي الأكثر تميزاً" كادامير. انظر: H.G.Gadamer, Méthode et vérité, Seuil, Paris, 1976, P. 246.



(الريش المنشور تيهـا مقابل الريش المنشور ضعفا) . إن التحول من زمن التيه والتباهي وتزيين الأعالي، إلى الزمن النقيض- في المقابل- يتضح أكثر عبر مجموعة من التقابلات التيمية في البيت الموالي:

هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه

شيء من السوداع الأخير

(الهجرة الاضطرابية مقابل الإقامة الاختيارية)، الذهول مقابل (اللاذهول)، (على عينيه مقابل في قلبه)، (السوداع الأخير مقابل السوداع المؤقت)، (السوداع أخير ظاهرياً مقابل وداع أول باطنياً)، (القشر مقابل اللباب)، (المعنى الظاهري مقابل المعنى الباطني) .

تاركاً خلفه مواكب سُحِبَ

تتهاولى من أفقها المحور

تقابل في البنية الظاهرية والخفية لهذا البيت العناصر التالية (التارك: النسـر مقابل المتروك: السحب)، (خلفه مقابل أمامه)، (مواقع ورائية مقابل مواقع أمامية)، (تتهاولى مقابل تتعالى)، (فعل لا إرادي مرفوض مقابل فعل إرادي غير حاصل)، (من مقابل إلى)، (الأفق والحركة الأفقية الثابتة مقابل الأرض: الحركة العمودية المفاجئة)، (المسحور: تحكم غير ذاتي مقابل الطبيعي: تحكم ذاتي) .

كم أكبت عليه وهي تندي

فوقه قبلة الضحى المخمور

في مقابل الحركة الارتدادية للنسر، يأتي البيت مقابلاً تميمياً لهذه الحركة، عبر مجموعة من العناصر النصية وأخرى بينها التأويل.

(كم الخبرية كناية عن العدد الكثير وهي المرادة مقابل كم الاستفهامية للسؤال غير مُرادة)، (السُّحب المُندِّيـة مقابل النسـر المُندِّيـة)، (قبلة السوداع مثبتة مقابل قبلة اللقاء منفية)، (التحول من المفعولية: السحب مُقبلة مقابل تحول من الفاعلية إلى المفعولية: النسـر مُقبَّل)،

(الضحى المخمور التوصيف المراد مقابل الضحى الصاحي توصيف لا يناسب اتجاه النص الدلالي)، (الضحى المخمور حقيقية مقابل الضحى المخمور على المجاز)، (الضحى مخمور مقابل الضحى مخمور أهله) ...

وتستمر تفاصيل هذه الحركة في شكل تقابلي ظاهر وخفي، بنائي ومؤوّل، وهو ما يسمح لنا بتأكيد القول على أن الذي يحكم عملية ولادة النصوص، وخاصة النص الشعري هو تقديم العالم والمعاني والخواطر طبقاً لتولدها داخل النفس، إنه منشأ التقابل، غير أنه يتخذ ألوّنا متباينة من العلاقات والخطاطات عند تحوله إلى فضاء النص اللغوي والتركيبي، حسب المقصد والمراد، وتبعاً لطبيعة العلاقات التي تحكم الأشياء في الكون، وتحكم كذلك طريقة تصور الشاعر لها.

وتبعاً لهذه الخطاطات المتشعبة التي تميز ولادة المعاني، تنشأ عند تلقيها خطاطات شبيهة بتلك التي تمت عند الولادة الأولية، لأن القارئ بدوره تحكمه علاقات محددة مع الحياة والكون، والقيم، إلا أنه يترك ذلك، ليتصق بتصوير ورؤية الشاعر، موظفا مرجعية العلاقات الدلالية نفسها التي تحكم في المنتج. غير أن العلاقات المتّجة من طرف المتلقي قد تنزاح قليلاً عما أنشأه الشاعر أو تتطابق معه، أو تتناقض معه، ولكنها حتماً تتأسس على خطاطات ذهنية تقابلية، وإن كانت لا تظهر، أو يتم التعبير عنها بمفاهيم أخرى. ولو أمعن فيها النظر، لوجد أنها جزء من التقابلات التي تكوّن الحياة والوجود في مناحيها المختلفة.

هبط السفح طاوياً من جناحيه

على كل مطمح مقبور

وهكذا، وعلى مستوى صناعة النص والمعنى المراد من طرف الشاعر، "فهبط السفح": أي الحركة النزولية للنسر يقابله ضمناً معنى

غير مراد وهو "صعد القمة": الحركة الصعودية، وكذا في "طاويا من جناحيه" فهي تقابل معنى غير مراد، وهو ناشرا من جناحيه. وما يتبع ذلك من استسلام لجاذبية الأرض مقابل الاعتماد على الفعل والقوة الذاتية، ثم تتأكد مسارات القوط والانحياز بجملة "على كل مطمح مقبور". واختيار هذه الجملة دون غيرها يعني إقصاء لمعنى مقابل وهو "المطمح المأمول"، فالأول يعني ترديا نهائيا وموتا وإقبارا، مقابل المعنى الغائب "المطمح الحي". إن اختيار جملة أو معنى يعني إقصاء غيرها، لكن التأويل التقابلي بينها ويستحضرها وإن أُقصيت أثناء صناعة النص، لتتضح المعاني على ضوءها، أو يتم توضيحها للآخرين، وهو إجراء مفيد جدا خاصة في عملية التدريس، وكثيرا ما نشرح الكلمات الغامضة في كل اللغات إما بمقابلها: المرادف، أو المضاد، أو بالمثل...

### فتبارت عصائبُ الطير ما بين

شُرودٍ من الأذى ونفور  
لو تفحصنا البنية الدلالية للبيت لوجدنا أن عناصر حاضرة وأخرى غائبة تتقابل داخلها، ويمكن إعادة بنائها تأويليا على الشكل التالي (عصائب تتسارع فرارا منه مقابل أفراد الطير التي تتسارع إقبالا عليه)، (شُرود: حركة غير قاصدة مقابل الحركة القاصدة)، (نُفورٌ من الأذى مقابل إقبالٌ لانعدام الأذى)، (نسر غير قاصد للأذى مقابل طيور تتوهم الأذى المألوف)، (سبب نزول النسر الحقيقي منتفٍ مقابل سبب النزول المتوهم حاصل).

يمكننا القول -كما أسلفنا- إن البنية الذهنية والنفية الكامنة وراء القول وإنتاج الدلالة تحكمت فيها اختيارات إنتاجية، ويستتبع ذلك أن المعاني تنمو بهذا المنطق التقابلي على مستوى الفهم، وبناءً على التقابل المركزي الذي يبني عليه البيت: (الكينونة/ الظهور)؛ فالظهور يوحي

بالقوة، وبالاعتقادات السالفة حول خطر النسر، وقدرته المعروفة في الفتك بالحيوانات التي في مقدوره القضاء عليها، وكذا سيطرته على مملكة الطيور، فهي لا تقترب من صيده حتى يشبع. هذا الظهور الخادع والكاذب لا زال يحرك مملكة الطيور للابتعاد عنه، وهو يخفي باطنا ضعيفا وهشا يوضحه البيت الموالي، حين يتوجه الشاعر إلى الطيور فاضحا الأمر:

لا تطيري جوابة السفع فالنسر

إذا ما خَبَّرْتَهُ لَمْ تَطِيرِي  
وبمكنة القارئ أن يبني الدلالات الحقيقية أو الرمزية اعتمادا على الإمكانات التقابلية التالية: (لا تطيري مقابل طيري)، (الناهي-الشاعر مقابل المنهي-الطيور)، (الطيور الحقيقية مقابل الطيور الرمزية)، (جوابة السفع مقابل جوابة الأعالي)، (طيور قوية مقابل طيور ضعيفة)، (النهى الحقيقي مقابل النهي الاستلزامي)، (الخبرة وعدم الطيران مقابل اللابخبرة والفرار من النسر)، (لأنك لم تخبّري النسر طُرْتُ، مقابل لو خبّرت النسر لم تطيري) .

يتبين من هذا أن المعاني تنطلق من تقابل نووي كلي أو جزئي، ثم تتفرع إلى تقابلات فرعية توسع المعاني؛ غير أنها كما أشرنا لا تحضر كلها في البنية الظاهرية، وإنما تستحضرها القراءة التأويلية التي تتبنى التأويل التقابلي، وقد تصل إلى النتائج ذاتها دون الوعي بالمفاهيم التي ذكرنا، وإنما نعمل على الإشعار بها والتأسيس لها تأسيسا نظريا وتظهيريا.

نَسْلُ الْوَهْنِ مِخْلِيهِ وَأَذْمَتْ

مَنْكِيه عَوَاصِفُ الْمَقْدُورِ  
وَالْوَقَارُ الَّذِي يَشْبَعُ عَلَيْهِ

فَضْلَةُ الْإِرْثِ مِنْ سَحِيقِ الدُّهُورِ

تتناهى تيمة العجز والتولي في مسار مأساوي متنام ذي نفس قصصي، وهذا من سمات الشعر الرومانسي؛ غير أن ما يعيننا هو الاستدلال على المنشأ التقابلي للتجربة الشعرية، والتنبيه على مناحي جمالياتها انطلاقاً من زاوية نظر تأويلية تقابلية، والنص -كغيره- من النصوص يؤكد تصورنا: (الوهن ناسل مقابل المخلب منسول)، (مخلباه مقابل منكباه)، (نسل الوهن مقابل أدمته عواصف المقدور)، (عواصف المقدور تُدمي / مقابل / المنكبان مديان)، (الوهن والقدر منفذان مقابل النسر متقبل)، (الشاعر عارف بحال النسر الظاهري والباطني مقابل الطير يجهل حاله الباطني)، (الوقار الظاهر متحقق مقابل الوقار الباطني مُتَّفٍ)، (الوقار الحقيقي موروث مقابل الوقار الوهمي مكتسب)، (زمن النسر مقابل زمن الشاعر) .

إن صناعة الشعر مجال تلتقي فيه التقابلات المؤسسة للمعنى، غير أن منها ما يحضر ومنها ما يفسح المجال لغيره لدلالته عليه وقيامه مقامه. وكثيراً ما عولجت عناصر أو سمات الشعرية من زوايا متعددة، وتم التركيز على المستويات اللغوية والإيحائية والانزياحية والتركيبية والإيقاعية، ولم يُنَبَّه إلى سر عميق يشمل العناصر السابقة كلها، وهو التقابلات (الحاضرة / الغائبة)، (الحاضرة/ الحاضرة)، بل إن شعرية كثير من النصوص يعتبر التقابل أول أسرارها، ومبدأ صناعتها وجمالياتها وبلاغتها. وهذا ما نحاول توضيحه هنا، وإبراز بعض تشكلاته وكيفيات انبثائه.

وقف النسر جائعاً يَتَلَوَّى

فوق شِلْوٍ على الرمال °

وعِجافُ البُغَاثِ تَدْفَعُهُ

بالمِخْلِبِ الغَضِّ والجَنَاحِ القَصِيرِ .

يقدم الشاعر أبو ريشة تجربة النسر في قالب قصصي تتنامى فيه الأحداث، مما يجذب المتلقي لمعرفة نهاية النسر وتفاعله مع ما حوله،

تأثيراً أو تأثيراً؛ يقف جائعاً هزيباً متردداً وعاجزاً على بقايا مأكولات الطيور الصغيرة التي تتأكد أخيراً من ضعفه وعجزه عن الدفاع عن الطعام الحقيق (الشلو)، فتبدأ في منازعته ومزاحمته بأجنحتها الصغيرة ومخالبتها الغضة. ويكشف انفضاح حقيقة النسر مجموعة من التقابلات البنائية (نصيا) والمبنية (تأويلية) : (وقف مقابل سار)، (جائع مقابل شعبان)، (يتلوى مقابل لا يتلوى)، (شلو مرمي ممزق مقابل صيد ثمين مكتمل)، (على الرمال مقابل على الجبال)، (مؤاكلة الطيور الحقيمة مقابل مؤاكلة أقوى الجوارح والوحوش)، (الرضى بالحقيق من الطعام مقابل البحث عن أفضل الطعام)، (عجاف البغات دافعة مقابل النسر مدفوع)، (المخلب الغض دافع وهازم مقابل المخلب القوي مدفوع ومهزوم)، (الجناح القصير سيطر على الميدان مقابل الجناح الكبير متقهقر ومنحجب). غير أن التحولين اللذين عرفهما مسار حياة النسر: القوة من قبل ثم التحول إلى الضعف يفضيان إلى تحول ثالث:

فسرّت فيه رَعْشَة من جنون

الكِبر واهتز هزة المقرور

ومضى ساحبا على الأفق الأغبر

أنقاض هيكَل مُنْخور

بعد الوضع المهين الذي أصبح عليه النسر واستشعاره لضياح هيئته وعدم فعالية مخالفه، وإحساسه باكتشاف الطيور لضعفه واستغلالها لذلك، انتفضت فيه كبرياؤه. ورغم هزاله لم يرض بغير العودة إلى الأعالي، لذلك يحلق بعيدا وعاليا: (رعدة الكِبر: عودة الحياة مقابل رعدة الموت: رفض الخنوع)، (اهتز هزة المقرور حاصلة بالفعل مقابل هزة القوي الجبار غير حاصلة واقعا)، (هزة الإحساس بالمهانة والذل في الحاضر مقابل هزة النخوة والاعتزاز في الماضي)، (حقيقة حاضرة مقابل حقيقة انتهت)، (الماضي الثابت مقابل البقاء المعدوم)، (الأفق

الأغبر: عالم الأحوال والضياع مقابل الأفق الصافي: عالم الأمان والوضوح)، (ساحبا أنقاض هيكل منخور مقابل قادما بجسد قوي)، (الحالة الراهنة مقابل الحالة الماضية) ...

لا شك أن الشاعر كان يختار من العوالم المتقابلة داخل الحياة والكون، وداخل مخيلته، وبناء على ما تمده به المعاجم، وما يسمح به النسق الإيقاعي والأبنية النحوية ومستلزمات شعرية النص، ما يؤسس لأفق الدلالة كما يتصوره، وكما يفرضه المقام الشعري؛ فهو ينتقي -داخل هذه القيود والإرغامات- العناصر المتقابلة التي تحضره لحظة الإنتاج وصناعة النص؛ مما يفرض على القارئ بعده نشر الخريطة الدلالية نفسها، ذات الأبعاد المتقابلة التي انطلق منها الشاعر نفسه وطواها ضمانا لشعرية النص واقتصاده. كما أن المقام الشعري وقيود الكتابة لا تسمح بعرض كل الخطاطة الذهنية والتصورية للدلالات، فيترك للقارئ ملء الفراغات، وإعادة توسيع التجربة الدلالية بما يناسب أدواته القرائية وحدود انتظاراته من النص، ثم بناء العوالم الممكنة والآفاق التصورية التي تنضوي تحتها الدلالة.

وإذا ما أتى الغياهب واجتاز

مَدَى الظَّن من ضمير الأثير

نطبق على البيت المسار القرائي نفسه في محاولة لكشف البنية الأصل لإنتاج المعنى الشعري؛ وهكذا نجد الإمكانات التقابلية التالية: (إذا ما أتى: الظرفية الممتدة نحو الزمن المستقبلي مقابل إذ أتى الظرفية الممتدة نحو الزمن الماضي وهي متفية)، (الغياهب تناسب الأفق الشعري للنص مقابل المواقع المضاءة لا تناسب الاتجاه الدلالي المختار شعريا)، (اجتاز: التحقق المطلوب لنمو النص مقابل لم يجتز: مسار يوقف نمو النص)، (الاستنساخ الطبعي مقابل الاستنساخ المصطنع)، (ضمير الأثير: النقطة الدنيا من الابتعاد والحد المرئي مقابل

ظاهر الأثير: النقطة القصوى من الابتعاد والحد غير المرئي) .

يشير البيت لتحول جذري في مسار النسر، وهو التحول النهائي الذي يسعى الشاعر إلى إقامته، وفتح أبواب المعنى عليه، وهو الوصول إلى الذروة، ورفض السفوح، كما أشارت إلى ذلك بداية القصيدة، وهو تحول مقرون بالفعل.

جَلَجَلَتْ مِنْهُ رَعَقَةٌ نَثَّتْ الْآفَاقُ

حَرَّى مِنْ وَهَجِهَا الْمَطِيرِ

وهوى جُثَّة على الذُّرَّة الشَّمَاء

في حُضْن وَكْرِهِ الْمَهْجُورِ

يختار الشاعر بناء على الإمكانات المتقابلة التي يمنحها المعجم والتركيب والمعاني الممكنة ما يريده لنسره، وهو: (الجلجلة مقابل الموت في صمت)، (الزعيق الدال على الحياة مقابل الزعيق الدال على الموت)، (الزعيق الحارق المتوهج مقابل الزعيق الطبيعي)، (النزول جثة هامدة مقابل النزول جسدا حيا)، (النزول في القمة مقابل النزول في السفح)، (الوكر المهجور حاضن مقابل النسر المهاجر محضون)، (النسر دون وكر مقابل النسر يملك وكرا)، (الوكر بيت في الماضي / الوكر قبر في الحاضر)، (اختيار الموت في السفوح مقابل اختيار الموت في القمم) ؛ والمعنى المبني من كل تلك التقابلات: كن أيها الإنسان مثل هذا النسر الرمزي، إذا كان لا من الموت فمت في القمة، ومقابل هذا المعنى نجده عند المتنبي في قوله:

و إذا لم يكن من الموت بُدّ

فمن العار أن تموت جباناً

تشكلت نواة القصيدة من هذا التقابل المؤطّر: البداية نزول اضطراري / النهاية صعود اختياري، وهو وإن بدا صعوداً ونجاحاً لكنه في الحقيقة نهاية وخسران، غير أنها النهاية التي ارتضاها النسر



الرمزي ولم يستطعها الشاعر، خاصة وأن البيت الأخير يفصح عن تقابل حقيقي يخترق تجربة النسر، ويقابل بينها وبين تجربة الشاعر، في اختيار ابتكاري وصناعي لشعيرة النص ورمزيته، ثم يفتحها على أبواب الدلالات الممكنة:

أَيُّهَا النَّسْرُ هَلْ أَعُوذُ كَمَا عُدْتَ

أَمْ السَّفْحُ قَدْ أَمَاتَ شُعُورِي  
ويمكن تحريك آلية التقابل لتتضح الرؤية أكثر، خاصة وأن البيت الأخير يشكل مقطعا لوحده، إن لم نقل قصيدة مفتوحة، متعبة الدلالات والمعاني: (المنادي: الشاعر مقابل المنادى عليه: النسر)، (النداء الحقيقي مقابل النداء الاستلزامي)، (الاستفهام الحقيقي مقابل الاستفهام الاستلزامي)، (الشاعر مقابل النسر)، (النسر مقابل القارئ)، (النسر مقابل الواقع العربي).

يشكل البيت الأخير -وحده- نصا، إذ فيه تتفجر المعاني على كل الاحتمالات، بناء على تأويل رمزي للقصيدة؛ فالنسر قد يقابل في الواقع نسرا طبيعيا، أو يقابل معادلا موضوعيا هو الشاعر، أو أي شخص آخر يصدق عليه مسار النسر في هبوطه إلى السفوح ومعاناته من المهانة والذل، ثم الصحوة وتفضيل الموت في الأعالي، كما قد يحيل على الأمة بأكملها، في عزها الأولاني، ثم تفهقها وتراجعها، ثم بحثها عن الأمجاد الغابرة وانتفاضتها بحثا عن المجد والعز.

إن النسر في تحولاته القائمة على التقابلات والمفارقات ليس إلا مرآة عاكسة رأى فيها الشاعر نفسه. ومن ثمة فكل التقابلات التي سبق استخلاصها أو بناؤها يجب التعامل معها رمزيا، بحيث ترمز إلى معطيات وعناصر محيطية بالشاعر، إنها مؤثرات الحياة الحقيقية. لقد تأسست تجربة القول في هذا النص على هذه الخصوبة التي يمدنا بها التقابل المعجمي والرمزي والدلالي والسياقي، وهو ما أعطى للقصيدة

بلاغتها وشعريتها المميزة، فالعالم الشعري الذي تتفاعل فيه هذه الأبعاد بشكل تقابلي بنائي وتأويلي جعل من النص فضاء مفتوحا على إمكانيات دلالية عديدة، تفسح المجال أمام تذوق حقيقي أثناء تحليل مكوناته الخطابية، لأن صاحبه عرف كيف ينتقي من العوالم والإمكانيات التقابلية ما يغني تجربته، مع إخضاع كل ذلك لآليات القول الشعري المعروفة من انزياح وأساليب بلاغية وصور شعرية ورموز وبنيات إيقاعية.

على هذا المنوال - وفي جميع النصوص والخطابات- ينبنى المعنى وصداه، العالم ومثاله، القول وظلاله، الذات ومراياها وفق تقابلات وتوازيات دلالية حاضرة وغائبة في بنية الخطاب. لذلك فالتقابل بجميع أشكاله وألوانه هو الآلية المحورية التي تصدر عنها الأفكار والمعاني والخواطر، وهي تتخذ أشكالاً شتى من العلاقات والتمثيلات، لأمر بسيط وواضح هو أن القول إعادة تشكيل للعالم وفق رؤية محددة، ولأن الحياة مبنية على الثنائيات والأزواج، فإنها أخذت طريقها إلى النصوص بكيفية من كيفيات التجلي والحضور، ويأتي التأويل التقابلي ليعيد الأشياء إلى منطلقاتها، مع ما يحصل أثناء التلقي من تذوق وتأثر وتفاعل مع المقروء وتحول في القيم والتصورات حول العالم.

## الفصل الخامس

### التقابل بين الخطابات التأويلية

قراءة الكرامة الصوفية عند مفتاح و كليطو<sup>(1)</sup> نموذجاً

#### تقديم

يرتبط التأويل بالمعرفة من زاويتين: زاوية البحث في موضوع ما عن حقائق أو معارف مجهولة لدى المؤلّ، حيث يشرع في التنقيب عنها يدفعه إلى ذلك إحساسه بغرابتها، أو حاجته إليها لغاية دينية أو دنيوية؛ إنها معرفة هدف لذاتها. أما الزاوية الثانية فهي التي يرتبط فيها الفعل التأويلي بمعرفة يمتلكها المؤلّ، أي مجموع العناصر والأدوات التقنية، والعلوم المرجعية، والمسارات التحليلية التي يستعين بها للتعامل مع موضوعه التأويلي باحثاً عن ضالته، فهي معرفة أداة، ووسيلة لاكتشاف معارف جديدة، ستصبح فيما بعد وسائل تمهد له السبيل لمعرفة أخرى تكون موضوع بحث جديد.

من هنا فتجربة التأويل هي دوران لولبي بين المعرفة الأداة والمعرفة الموضوع، للوصول عبر النصوص إلى حقائق الظواهر من حولنا. إن كل خطاب تأويلي هو نتاج تفاعل حقيقي بين المؤلّ وموضوعه، نصاً كان أو ظاهرة من الظواهر، إنه اشتغال يسعى إلى امتلاك معرفة ما، أو الإجابة عن أسئلة مقلقة، أو تدبير افتراضات أو تخمينات أو حدوس

---

(1) ناقدان مغربيان معاصران معروفان بأبحاثهما الأكاديمية، لهما إسهامات كبيرة في حقل الدراسات التأويلية. سيتم التعريف بجوانب من منجزاتهما ضمن مواد هذا الفصل.

معينة. ولا بد أن يخترق هذا التأمل التأويلي ظواهر الأشياء نحو موازياتها الباطنية، بعد امتلاك معرفة-أداة تكفي لإضاءة مجاهل الطريق وتجاوز العوائق.

نود في هذه المقاربة القائمة على التقابل أن نسهم في تجلية جانب هام من جوانب الممارسة التأويلية التي تتخذ موضوعا لها الظواهر النصية، وهو تساند الآليات القرائية النصية وموازياتها السياقية في أي استعمال تأويلي، وهو ما كشفنا عنه في تحليلنا لخطابات تفسيرية عديدة، وأخرى متعلقة بالشروح الشعرية. ونقدم هنا مقاربة لخطابين يؤولان نصين متقبيين (كرامتين صوفيتين)، وهما لباحثين مغربيين معاصرين: الأول عبد الفتاح كيلطو والثاني محمد مفتاح، وذلك لتأكيد الطرح الذي ندافع عنه وهو أن التأويل مجموعة أفعال تساندية تتبادل العون، وينفتح على بعضها البعض، خالقة ما يشبه ورشة عمل قرائية، هي منطلق الفهم والإفهام، إذ إن كل تأويل هو تعرف على المؤشرات البنائية النصية: لغة، وتراكيب نحوية، وبلاغية، وعلامات، ورموز. وبعدها يتم الانفتاح على قنوات سياقية خارجية، تمتد بها العلوم المرجعية، مثل علم اللغة وعلم النحو وعلم البلاغة وعلم العلامات وعلم التاريخ وعلم النفس والنصوص الغائبة وملابسات وظروف إنتاج النص، وكل مادة لها سبيل للدخول إلى فضاء القراءة التأويلية، لرفدها ودعمها وتوسيعها وإغنائها.

نهدف من وراء هذا الطرح اقتراح تأويلية بديلة للمنهج الأحادي، موجودة في الخطابات التأويلية، قديمة وحديثة، فللنص دوما امتدادات فيما هو خارج عنه، وكل عمل تأويلي هو تأسيس لجسور واصله بين مقومات الدلالة في النص وبين كياناتها المختلفة خارجه، وعليه يكون الاشتغال التأويلي في تساند آلياته بحرا للمعنى تسبح فيه جزائر الثقافة المختلفة، بما فيها "جزيرة" النص و"جزائر" موازياته الخارجية، من

علوم يفتح عليها المؤؤل، وخطوات منهجية وأفكار وتصورات، في الحدود التي تخدم القراءة وتحافظ على انسجامها.

ومعنى هذا أن هناك قيودا وضوابط عاصمة من الهذيان، منها الأعراف والمواضعات اللغوية، وانسجام المعاني المبنية مع قصدية النص، ومع ملابسات السياق المؤطر لتجربة الإنتاج وحدود التعاقد التأويلي الذي يحدده النسق الثقافي العام، أو العلم المتخصص بالمجال الذي يتم فيه التأويل والفهم.

ولتأكيد ما سبق سنحاول الوقوف على الآليات المضمرة العاملة في تأويلية النص المنقبي، عسى أن تُبنى منها ملامح نموذج قرائي، يحررنا من قواعد مؤسسة المنهج الصارمة والتي تُوظف، في بعض الأحيان، قسرا على أنظمة النصوص.

## 1- حدود النص

مفهوم النص شائك وملتبس وعائم، قُدمت بصده تصورات متباينة، وذلك لارتباطه بحقول معرفية مختلفة، من لسانيات وسميائيات ونظريات نصية. وهو مفهوم يثير مفاهيم مجاورة له، مثل الخطاب، والأثر الأدبي، وإشكالية النصوص الشفوية وغيرها.

### 1-1- النص والخطاب

انطلقت تحديدات الغريبين للنص من دوافع وموجهات عديدة، ولذلك تباينت تعريفاتهم؛ وسنحاول أن نعرض بإيجاز لبعض تلك التصورات، سواء التي تعتبر النص والخطاب شيئا واحدا أو التي تفصل بينهما فصلا تاما.

نجد في معجم كريماس وكورتيس التحديدات التالية<sup>(2)</sup>:

---

A.J. Greimas et J.Courtes, Sémiotique dictionnaire raisonne de la-1 (2) théorie du langage, Hachette Université, Paris, 1979, p. 390.

أ- إذا اعتبرنا النص ملفوظا فإنه يختلف مع الخطاب تبعا لمادة التعبير المتعملة: الخطية في النص، والصوتية في الخطاب.

ب- يُستعمل النص مرادفا للخطاب، وبالتالي لا نجد أي اختلاف بين سيمياء النص وسيمياء الخطاب.

ج- يُعرف النص من منظور لساني بأنه مجموع السلسلة اللغوية غير المحدودة، وهو اختيار لوحداث معينة وإعادة لها.

د- يستعمل مصطلح النص بمعنى المتن، عندما يكون الموضوع المختار مجموعة من الوثائق المعروفة أو الشهادات أو عمل كاتب.

يتضح من الإشارات السابقة أنها لا تلغي التطابق بين المفهومين (النص-الخطاب)، من حيث كونهما ممارسة دالة على الاستعمال اللغوي، أو يمثلان مجموعة من المقولات اللسانية التي تتخذ متنا للتحليل. إلا أن التحديد (أ) يشير إلى مسألة الاختلاف بين النص والخطاب، بناء على مادة التعبير الخطية في النص والشفوية في الخطاب. إن النص مفهوم مجرد يحيل إلى الأنظمة اللسانية بمستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية، إنه متتالية جمالية مرسلية بين بياضين دالين، بين وقفيتين تواصليتين، أما الخطاب فنذكره من منظور الإوالية الخطابية التي تحكم سياقه.

ضمن هذا التصور، تميز كريستيفا بين النص والخطاب، اعتمادا على مفهوم البنية؛ فالنص ممارسة دالة وصيرورة لإنتاج المعنى، فهو يُدرّس باعتباره تبنينا<sup>(3)</sup>، أي جهازا لإنتاج وتغيير المعنى، لا بنية جاهزة للمعنى فحسب. هذا التمييز بين النص والخطاب نجده كذلك عند "ليتش" و"شورت" من خلال تفريقهما بين بلاغة النص وبلاغة الخطاب، بناء على وظائفهما: الخطاب: وظيفة تواصلية، والنص: وظيفة

---

(3) انظر أحمد اليابوري، دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط. 1، ص. 15.

إن النص مُسَجَّل من حيث هو تجل خطي، وهذه الخاصية الخطية هي التي تسمح بفك شفرته ومواده اللسانية، ويقيم "فان ديك" تميزا واضحا بين المفهومين؛ فالنص هو البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطابا<sup>(5)</sup>، فهو وحدة مجردة لا تتجسد إلا عبر الخطاب كفعل تواصلية وإنتاج تلفظي ونتيجة مسموعة ومرئية لهذا الموضوع التجريدي الذي هو النص.

إن تحديد مفهوم النص يكاد يكون عتبة ومدخلا ضروريا، عند كل من يريد تناول قضية نظرية، أو معالجة نصية وفق تصور منهجي محدد، فهو محور أي تنظير للأدب أو النقد، وهو موضوع الممارسة التأويلية كذلك. وتبعا لاختلاف التصورات والمنطلقات المعرفية والأيدلوجية والمنهجية، اختلفت تحديداته، وكل مُنظِّر أو مؤوِّل يحاول أن يوسع أو يُكَيِّف المفهوم لِيَتَجِب لقضاياه النظرية والإجرائية كما سنرى.

## 1-2- النص واللا نص

إذا سلمنا بما سبق، فإن كل ما هو مكتوب يُعَد نصا، فالإعلان والمادة الإشهارية والمثل والتعليق الرياضي المكتوب أشكال نصية

(4) قدم الأستاذ سعيد يقطين إشارات مفيدة في هذا الصدد في كتابه: انفتاح النص الروائي (النص - السياق) المركز الثقافي العربي، بيروت - البيضاء، ط.1، 1989، ص.17.

(5) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط.1، 1991، ص.28. ولمن أراد التوسع أكثر يمكنه الاطلاع على: حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2007. وكذا محمد الأخضر الصيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2008.

كذلك؛ من هنا فإن خاصية الكتابة فيما يبدو غير كافية للتمييز بين ما هو نص وما ليس كذلك. نحتاج إذاً إلى عناصر ثقافية مميزة، فالكلام شفويا كان أو كتابيا لا يأخذ بعده النصي إلا داخل ثقافة معينة، بحيث ينضاف إلى المدلول اللغوي مدلول ثقافي. يتمتع النص بخصائص إضافية وتنظيم فريد يعزله عن اللانص<sup>(6)</sup>. ولا يعني هذا أن ما ليس نصا هو شكل لغوي مشوش وفوضوي، إذ يمكنه أن يتوفر على تنظيم معين، إلا أنه تنظيم لا يحمل بعدا ثقافيا، أي لا تنطبق عليه مجموعة من الخصائص النوعية، فنية وجمالية والتي أتفق على كونها معيار النصية من اللانصية داخل نسق ثقافي محدد.

وتأسيسا على ذلك فما يمكن أن يعتبر نصا عندنا، قد لا يعتبر كذلك عند غيرنا، فـ"ألف ليلة وليلة" مثلا لم يكن كتابا معترفا بنصيته في الثقافة العربية القديمة، كما أن كثيرا من النصوص لا يعترف بنصيتها إلا إذا كانت صادرة عن مؤلف مشهود له بإنتاج النصوص، وهو ما يسميه كليطوب بـ"المؤلف الحُجَّة"<sup>(7)</sup>. من هنا نفهم دعوة جان مولينو<sup>(8)</sup> إلى تشييد نظرية أدبية عامة تضع على المستوى نفسه كلاً من الأدب الشفوي والأدب المكتوب، فالقول بنصية المكتوب ولا نصية الشفوي جعله يدعو إلى المحافظة على الطرفين معا، إذ إن الأنواع المكتوبة هي استمرار للأنواع الشفوية. ومن وجهة نظره، فإنه لا يمكن فهم الملحمة بعزلها عن منابعها الشفوية. وعليه فإن علم نصوص الأدب المكتوب وعلم خطابات الأدب الشفوي يتأسسان داخل معرفة شاملة بالإنتاجات اللسانية. وإذا كان لا بد من التفريق بين النصوص المكتوبة والخطابات

(6) للتوسع ينظر، عبد الفتاح كليطوب، الأدب والغربة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، ص. 14.

(7) المرجع السابق، ص. 16.

(8) Jean Molino, interpréter, dans l'interprétation des textes, ed. Minuit, Paris, 1989, p.40.



الشفوية، فيجب البرهنة على أن الخصائص الأساس للشكلين متباينة. إن فرضية التمييز بين الشكلين لا أساس لها في نظره، لأنه لا يوجد فرق بين مثل شفوي ومثل مكتوب، وليس هناك أي تعريف يمكن تطبيقه على نصوص مختلفة كل الاختلاف كنص تراجيدي لراسين، مقال رياضي في جريدة أو تقرير عن ظاهرة بيولوجية مثلا، مما دفعه إلى الخلوص إلى أنه ليس هناك تعريف عام للنص.

### 1-3- النص والأثر الأدبي

إذا كانت كريستيفا قد حاولت صياغة رؤية كلية للنص، نسقية ومتحررة وبنوية ووظيفية ونظرية وإجرائية، ساعية إلى بناء علمية النص<sup>(9)</sup>، باقتراح نظرية له عبر مفاهيم الممارسة الدالة والإنتاجية والتدليل والتناص والنص الظاهر والنص المولد، وكان "جنيت" قد طرح بدوره مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالنص: التناص، ما وراء النص، جامع النص، النص الأعلى... فإن رولان بارت طرح مفهوم النص وأظهر تمايزه عما يسميه الأثر الأدبي، اعتمادا على مفهوم اللذة، وأساس تصوراتيه هو استبعاد كل ماله علاقة بالأثر الأدبي. وقد بين في كتاب "درس السيميولوجيا" الحدود بينهما انطلاقا من العناصر التالية: المنهج والأجناس والدليل والتعدد والسلالة والقراءة واللذة<sup>(10)</sup>.

ليست الأسبقية الزمنية أساسا للتمييز بين النصوص والآثار الأدبية، فالنصوص لا ترتبط فقط بالفترة المعاصرة، كما أن الآثار القديمة تتضمن نصوصا، وكثير من الأعمال المعاصرة لا تعد نصوصا، وبالتالي فما يميز

---

(9) ينظر جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1، 1991، ص. 13.

(10) رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1986، ص. 60.

بينهما هو أن الأثر الأدبي قطعة مادية تتناولها اليد، وهو من الناحية المنهجية قابل للتصنيف والتجزئ، في حين أن النص تتناوله اللغة وهو غير قابل للتجزئ والتصنيف.

على مستوى النوع، يتموضع الأثر ضمن حدود معروفة تسهل تصنيفه، وينحصر في مدلول محدد. أما النص فهو خارج التجنيس، يمارس لعبه ومراوغته لقوانين اللغة.

ويخضع الدليل في الأثر لمنطق غير رمزي أحادي وقابل للتأويل، أما النص فهو قائم على الرمزية وتعدد المعنى، لذلك فهو دائما معجاز وانتقال.

يحترم الأثر سلالاته بانتمائه لمؤلفه، أما النص حسب التصور البارتي دائما، فهو يثور على سلطة الأب، غير قابل للتحديد. وترتبط قراءة الأثر بلذة الاستهلاك، أما النص فلذته في إعادة كتابته، حين تنصهر الآفاق الإنتاجية والتقبلية، وتندمج القراءة والكتابة في ممارسة واحدة دالة.

تحقق النصية لدى بارت عبر مفهوم آخر وهو الكتابة، من حيث هي ممارسة قائمة على البحث عن المعاني المجازية، والقصد إلى اللعب والاتواصل والخلخلة والتشويش والنشاط الرمزي وفعل اللذة. لا نحصل من كل هذه التمييزات التي أقامها بارت بين النص والأثر الأدبي على تعريف دقيق قائم على أسس بنيوية، ومعايير فنية تميز بها النص عن اللانص؛ وتلخص هذه الفقرة من حوار مع موريس نادو إشكالية تحديد النص: "إن النص ما يزال يبحث عن ذاته، فقد اتخذ في البداية معنى سجاليا، وحاولنا مقابله مع مفهوم الأثر، الذي يلي وتشوه، ومع ذلك فلا أعتقد أن بإمكاننا حاليا تحديد كلمة نص، إذ سرعان ما نجد أنفسنا عرضة للنقد الفلسفي للتعريف، كل ما بإمكاننا الآن هو أن

نعمل على التقريب المجازي لمفهوم النص<sup>(11)</sup>.

وبناءً على ما سبق، فإن تحديد بارت للنص يقوم على تصويره الشامل للأدب، والنقد والكتابة والقراءة من خلال مفهوم اللذة، أكثر مما هو تحديد يركز على المستويات البنائية والجمالية والخصائص النوعية المفروض الاعتماد عليها.

#### 1-4- مرونة المفهوم وإمكانات التكيف

في ظل الاعتبارات السالفة، فإن مفهوم النص يبدو مرناً، وقابلاً لإدخاله ضمن تصورات نظرية ومنهجية مختلفة، تبعاً لأهداف المؤلّ، وكذا موضوع الاشتغال والمرجعيات المعتمدة. ونقدم فيما يلي نموذجين تعريفين لمفهوم النص لكل من سعيد يقطين ومحمد مفتاح، لإظهار حدود التوسيع والتكيف.

يقول يقطين: "النص بنية دلالية تتجه ذات فردية أو جماعية، ضمن بنية نصية منتجة، في إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"<sup>(12)</sup>.

يتخذ هذا التعريف من النقد السوسيولوجي مرجعاً له، في بعده البنيوي والإنتاجي، وهو تعريف جد متماسك في حدود الظواهر النصية المدروسة، وخطة العمل الكلية؛ فالنص بنية دلالية، من حيث انبناؤه على دوال ومدلولات، وتضمنه بنيات صرفية ونحوية وبلاغية قابلة للملاحظة والوصف. كما أن البنية النصية مشكلة من مجموع بنيات جزئية داخلية، وهو منجز داخل بنية نصية كبرى، تتفاعل فيها النصوص وتتقاطع وتتناصر، وهي البنية الثقافية والاجتماعية.

أما البعد الإنتاجي في هذا التعريف، فيتمثل في كون العلاقات بين هذه البنيات قائمة على التفاعل والصراع، والبعدان البنيوي والإنتاجي

(11) رولان بارت، م. م. ص. 65.

(12) سعيد يقطين، م. م. ص. 17.

يحققان للنص انفتاحه وديناميته وتفاعله مع نصوص أخرى، أو بنيات ثقافية واجتماعية. إن التعريف هنا محكوم بتصور السوسيو- سرديات على ثلاثة مستويات: البناء، والتفاعل، والبنيات السوسيو- نصية؛ وهو منجم مع الجهاز النظري والمنهجي الذي يصدر عنه، وبهنا هنا إيضاح قابلية المفهوم للتكيف والتوسيع.

أما محمد مفتاح فيعرف النص بأنه "مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة"<sup>(13)</sup>. يؤكد هذا الباحث أن كل تعريف للنص يعكس توجهها معرفيا ونظريا ومنهجيا معينا، وهو لا يتبنى تعريفا لسوسولوجيا الأدب، أو للنظرية البنوية، أو لتحليل الخطاب... وإنما يعتمد التركيب بين اقتراحات مختلفة لاستخلاص المقومات الجوهرية الأساس<sup>(14)</sup>؛ فالنص مدونة كلامية، أي أنه كلام وليس إشارة أو حالا ناطقة، وهو حدث مرتبط بالزمان والمكان المحددين، يهدف إلى التواصل، وهو تفاعلي إذ يقيم علاقات تفاعلية بين أفراد المجتمع، وهو نظام مغلق خطيا، أي له بداية ونهاية، ويوجد بين بياضين دالين. ثم هو توالدي، أي أن الحدث اللغوي فيه نتاج أحداث تاريخية ونفسية ولغوية. هذه العناصر التعريفية للنص تنجم مع الأطر النظرية والمنهجية المتحكمة في اشتغاله على نموذج شعري قديم وهو رائية ابن عبدون الشهيرة.<sup>(15)</sup> جاء التعريفان في سياقين تمهيديين لقراءة وتحليل نصوص أدبية: الرواية عند يقطين، الشعر عند مفتاح، ثم نحتما وتوسيعهما ليلائما

---

(13) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط. 2، 1987، ص. 119.

(14) نفسه، ص. 118.

(15) انظر كذلك محمد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط. 1، 1999، حيث تناول الباحث مفهوم النص في الثقافة اللاتينية والثقافة الإسلامية من خلال الأبعاد التالية: النص نسج، النص وثاق، النص منصة، النص كتاب، النص كلام... ص. 16 وما بعدها.

الموضوعات النصية المستهدفة، غير أنهما يمتدان ليطولا غيرهما مما لم يُعترف بنصيته بعد: الإعلامات، المدونات التاريخية، المناقب، الأمثال... وكل الأشكال التي لا تدخل ضمن الأجناس الأدبية المعروفة، والمحددة بسماتها الجوهرية في نظرية الأدب.

وسواء اعتبرنا النص بنية دلالية أو مدونة حدث كلامي، فإن ذلك لا يمنع من اعتبار ما ليس أدبا نصوصا، وهكذا يتبدى أن مفهوم النص أوسع بكثير من مفهوم النوع الأدبي، فهو قابل للتمطيط ليسع الأدب واللاأدب، والمدونات التاريخية، والفلسفية، والتعاليق، والمواد الإشهارية المكتوبة، والتقارير...

وبناء على ذلك، يجب أن ينظر إلى النص على أنه بنية لغوية متقة ذات صناعة أدبية ونسج جمالي، موجهة إلى متلق، ووراءها منتج له مقاصد معينة، وهي قابلة للفهم والتأويل بأشكال متباينة، وفي مقتضيات أحوال مختلفة. أما الخطاب فهو النص المتداول في مقتضيات تخاطب معينة: زمان ومكان ومرسل ومرسل إليه، وكذا مجموع العلاقات الموجودة بين العناصر الخارج-لسانية. وباختصار فالخطاب هو النص داخل أحوال تخاطب معينة.

ومن هنا نبع التمييز عند بعض الباحثين بين المعنى من حيث هو حقيقة نصية، والدلالة باعتبارها حالة خطابية. يرى "إي دي هرش" أن المعنى هو "ما يمثله نص ما، ما يعنيه المؤلف باستعماله لمتواليه من الأدلة الخاصة، هو ما تمثله الأدلة، أما الدلالة فتعني العلاقة بين المعنى وشخص، أو مفهوم، أو وضع، أو أي شيء يمكن تخيله"<sup>(16)</sup>.

ينسجم التوسيع الذي يقبله النص مع أفق البحث والدراسة التي تتخذ موضوعا لها كل الظواهر المعتبرة أدبا وغير المعتبرة كذلك،

---

P.D.juhl, interpretation, an essay in the philosophy of literary criticism (16)  
New jersy, 1980, p. 27.

شأن المناقب مثلاً. وهكذا فإن خاصية النصية وانباءها على الأدبية، هي محصل إجماع أو شبه إجماع داخل نسق ثقافي محدد، والهامش الذي يسمح به افتتاح مفهوم النص، يفتح المجال واسعا لدراسة ظواهر نصية متباينة، شأن المناقب كما سئرى.

## 2 - النص في مرايا السياق

### 2-1- تأويلية النص المنقبي الصوفي عند كَليطو ومفتاح

يتخذ خطاب التأويل من نصوص سابقة موضوعاً له، وجوده مرتبط بوجود موضوعه، فهو مرجعه الأساس ومنطلقه، ووظيفته هي وصفه وتأويله، ونقل تجربة تأويلية وقراءة من مجالها الذاتي إلى مجال تداولي أوسع، حيث تصبح بدورها موضوعاً للتأويل. والنموذجان المختاران للمقاربة هنا يُعدان من الأمثلة القليلة التي اهتمت بالنصوص المنقبية قراءة وتحليلاً، وذلك استناداً إلى تصورات تأويلية حديثة، وإلى خبرة تأويلية عملت على استقصاء الأبعاد الدلالية والرمزية للنصين المدروسين، عبر استحضار كل الأشكال المعرفية الخارجية والمنهجية التي من شأنها إغناء الفهم.

النموذج الأول ورد ضمن كتاب "الحكاية والتأويل"<sup>(17)</sup>، والثاني ضمن كتاب "مجهول البيان"<sup>(18)</sup>، وموضوع اشتغالهما منقبتان مختلفتان، الأولى لأبي سهل القرشي، والثانية لأبي يحيى بن لا الأذى الرجراجي، مأخوذتان معا من كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات<sup>(19)</sup>.

---

(17) عبد الفتاح كَليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.

(18) محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1، 1990.

(19) ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، 1984.

نهدف من وراء دراسة وتحليل هاذين الخطابين التأويليين اكتشاف الآليات العاملة فيهما عبر إحداث التقابل بينهما، والوقوف على إجراءات الفهم وثوابته، وإمكانات بناء المعنى في بعده النصي والسياقي، في حدود تساند وتعاون مواد النص المنقبي مع مواد خارجية سياقية، والمسالك العبورية التي يمهدها كل مؤوّل بين أنظمة النص اللغوية، والرمزية، والبلاغية، وبين كل الموازيات السياقية التي يتبين للمؤوّل أهميتها في رقد وبناء المعنى وتشكله. وفي كل الحالات فإن إستراتيجية النص- السياق لا تعمل لوحدها، فللمؤوّل دوره البارز في إعداد خطة القراءة والتصريح بها أو عدمه، وفي السهر على تطبيقها، ومراقبة عمليات العبور والانفتاح، وتحمل أعبائها وتبعاتها في كل الأحوال.

## 2-2- تعريف المنقبة

2-2-1- المنقبة شكل سردي يحكي عن حياة أشخاص مخصوصين بالقدسية، وعن كراماتهم وخوارقهم، وهي شكل من أشكال الترجمة أو بيوغرافيا خاصة بشخص معين، في مكان وزمان محددين. غير أنها تفتقر إلى التوثيق المضبوط الذي في تراجم الشخصيات التاريخية مثلاً، وذلك لاستناد هذه الأخيرة على وثائق وعلى أسلوب دقيق في صياغتها، بخلاف المنقبة التي تعتمد على الرواية الشفهية، مما يعرضها للتحريف أكثر، كما تغيب فيها التراتبية الزمنية التي نجدها في التراجم، حيث تركب وحدات السرد بطريقة غير خطية. كما أن السرد في المناقب يعتمد على معجم صوفي أو ديني في الغالب، وترتكز صياغتها على الرمزية وأساليب البلاغة لتغيير سلوك المتلقي بالإقناع أو الترهيب.

2-2-2- المنقبة فضاء لالتقاء نصوص مختلفة، ومظاهر شكلية معروفة في أنواع نصية أخرى، فهي تلتقي مع الترجمة في سرد حياة

شخص ما، وتلتقي مع علم الحديث في اهتمامها بالرواية، ذلك أن راوي المتقبة يحرص على ذكر سلسلة روايتها ومُتْنها، وهي خاصية جوهرية في رواية الحديث، إذ على ذلك تبنى صحته أو كذبه. الأمر نفسه في أدب المناقب، حيث يحرص المترجم على ضبط النص وسلسلة رواته، ويسعى للأخذ ما أمكن عن الثقة، فيذكر سلسلة الإسناد، ويدقق في الرواية الأرجح. كما لا تخلو المناقب أيضا من خصائص أدبية، فهي تستعير من الأدب شكل السرد الحكائي وقوانينه الأدبية مثل الثرية والسجع واللغة الشعرية أحيانا<sup>(20)</sup>.

وهكذا فأدب المناقب مجال لتقاطع حقول معرفية مختلفة: دينية وتاريخية وأدبية.

2-3- إلى جانب الخاصية الحوارية التي تمتع بها المناقب، فهي تعكس على المستوى البنائي جانبيين مختلفين: الواقع الظاهري، والرمزي الإيحائي الإشاري. وبقدر ما تنتفع من الموروث الديني في صياغة عوالمها، تنتفع من الأدب الشفهي الذي تأخذ منها صفات أبطالها، وطابعها الشفهي، وهو ما يتيح لها التداول والاستمرارية والشيوع.

كما أنها تتميز بالعجائب<sup>(21)</sup> وخرق السنن، ووجودها ليس اعتباطيا، وإنما يرتبط بوظيفة ظاهرية أو خفية، فاعتمادها على الخوارق وتحديثها للسنن يعكس بحث الصوفي عن وسائل التغلب على النقص أو العجز الذي يعيشه في عالمه الواقعي، سواء مع ذاته أو مع مجتمعه، أو مع السلطة السياسية أو أي سلطة أخرى، وذلك بخلق عالم خيالي يفجر فيه

(20) للتوسع في هذا ينظر Houari Touati, les modèles d'écriture des manaqib maghrébines, dans: Histoire et linguistiques- oeuvre collective – université, mohamed 5, Rabat; 1992. p. 57.

(21) علي زيعور، الكرامة الصوفية، الأسطورة والحلم، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، 1977، ص. 25.



توتره وصراعاته الداخلية؛ بل إن همَّ الصوفي يمكن أن يعكس بعض هموم جماعته في واقع معين.

2-2-4- تحتوي المناقب على عناصر بنائية مشتركة، قائمة على اللغة التي هي مفتاح ولوج العوالم الباطنية للمنقبة؛ وهي لغة مكثفة ومكتنزة بالإشارات والمصطلحات والرموز، إنها "لغة غير شائعة، مثيرة للدهشة وعدم الرضى، تصدم الحس المألوف، فليست المصطلحات وحدها جديدة، بل إن الكلمات تأخذ وظيفة مختلفة ومعان جديدة. يبعث الصوفي للكلمة العادية التي يستعملها الناس روحا واتجاها لم يكونا فيها من قبل، ويحملها مهمة نقل ما لا يُنقل بالكلام الآخر، وتعبير ما لا يُعبر عنه"<sup>(22)</sup>.

إن المنقبة ليست مجرد قصة أو خرافة، بل هي لوحة مملوءة بالألغاز، تختصر نظرات مجتمعها إلى الكون والإنسان، ومن ثم فهي ليست لعبا لغويا أو صياغة لعوالم خرافية الهدف منها الترويح على النفس، بل تخفي في ثناياها فلسفة خاصة بأصحابها للإنسان والوجود، وانطلاقا من العالم الظاهري المدرك عبر اللغة، ينبنى عالم باطني عميق تكشفه النظرة المستقصية المؤولة التي لا تقف عند حدود الظاهر، وإنما تجعله وسيلة ومَعبرا إلى مكنون أصداف اللغة، وهذا ما يجعل المناقب قبلة للتأويلات، وأرضا بكرًا للفهم وتجريب إجراءات قرائية متباينة.

يقترح علي زيعور في كتابه "الكرامة الصوفية" عناصر مساعدة لتأويل النص المنقبي، وهي التقليل، والتضخيم، والاختيار؛ ويقصد بالتقليل اختزال المنقبة إلى عناصر تكون مدخلا للقراءة والفهم. أما التضخيم فهو البحث عن الرموز ودلالاتها، بحيث نعزل عنصرا محددا تهيبا للدراسة، ونجمع الحوادث التاريخية والحضارية التي تقدم لنا إضاءات مفيدة، ثم نقارن بين الاستعمالات المختلفة له في

(22) المرجع السابق، ص. 47.

الشعر والقصص وغيرهما. يمكن إذاً تحيين السمات أو المقومات البنائية النصية: لغة، ورموزاً، وتراكيب غامضة، واستعارات وغيرها اعتماداً على موازيات سياقية خارجية، في شكل أخبار، أو معارف، أو نصوص، أو غيرها، وهو اشتغال إستراتيجي في كل ممارسة تأويلية سميناه "التساند"<sup>(23)</sup>.

بعد التقليل والتضخيم نقوم بعملية الاختيار والتصفية، حيث يتم الترجيح بين الإمكانات التأويلية التي يمنحها لنا فتح النص المنقبي على عناصر من الثقافة والموسوعة والتاريخ. نجد في كتاب "التلقي والتأويل" لمحمد مفتاح<sup>(24)</sup> ما يقترب من هذه الإجراءات القرائية، فهو يتحدث عن التكثيف والتمطيط، ويرى أنهما آليتان متلازمتان تحكمان في فضاء كل خطاب. ويقف في تحليله لنصوص منقبية عند حدود هذا التكثيف والتمطيط؛ فالتكثيف تركيز واختزال لما كان موسعاً بالإشارة إليه، والتمطيط هو توسيع نوى دلالية باعتبارها رحماً لما يحيط بها. ويضيف آلية أخرى وهي التزيّد، ويقصد بها الإتيان بمعلومات جديدة عبر الانفتاح على مستويات السياق الخارجي التي بإمكانها دعم القراءة.

وهكذا فسواء استخدمنا آليات التقليل والتضخيم والاختيار، أو التكثيف والتمطيط والتزيّد، فإن هذه الاقتراحات تركي ما نطرحه من أن أفعال التأويل تؤوب في النهاية إلى مستويين بارزين وهما: النص والسياق، بدءاً بالتعرف على المستويات البنائية في النسيج النصي، ما وضح منها وما غمض، ويتم طرح فروض استكشافية بصدها، وتحديد

---

(23) انظر محمد بازي، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، مذكور.

(24) محمد مفتاح، التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط. 1، 1994.

البنيات المعتمدة: لغوية أو نحوية أو بلاغية أو رمزية، من أجل إيجاد تخرجات دلالية لها، بناء على العلوم المرجعية للقراءة، وكذا ما تقدمه الموسوعة والتاريخ، ويتم الترجيح بين التأويلات الممكنة لاختيار أكثرها مقبولة وانسجاما، من سياق إنتاج النص المنقي ومقاصد صاحبه، وآليات التدليل فيه.

### 3 - تأويلية كليطو/مفتاح

#### 3-1- كليطو مؤولا

يُعد عبد الفتاح كليطو من المؤلفين والباحثين المغاربة البارزين في حقل السرديات العربية القديمة، دارس شغوف بالبحث عن النصوص المتمنعة، ومتبع صبور في استنطاق رموزها ومضمرااتها. له في هذا المجال مجموعة هامة من الكتابات: "الأدب والغربة"<sup>(25)</sup>، "الكتابة والتناسخ"<sup>(26)</sup>، "الغائب"<sup>(27)</sup>، "الحكاية والتأويل"<sup>(28)</sup>، "العين والإبرة"<sup>(29)</sup>، "لسان آدم"<sup>(30)</sup>...

يتبين للمطلع على هذه الكتب أن صاحبها ينطلق من هم معرفي وتأويلي عميق، وهو إخراج النصوص السردية التراثية من الظل، وقراءتها بتأن وروية، فهو يتحفز للعمل كلما أحس أن كاتبها يخفي عنه

(25) مرجع مذكور.

(26) عبد الفتاح كليطو، الكتابة والتناسخ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط. 1985.

(27) عبد الفتاح كليطو، الغائب، دراسة في مقامة الحريري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. 1987.

(28) مرجع مذكور.

(29) عبد الفتاح كليطو، العين والإبرة، ترجمة مصطفى النحال، الفنك، الدار البيضاء، ط. 1996.

(30) عبد الفتاح كليطو، لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشراوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط. 1، 1995؛

شيئا، فيبحث عن رأس خيط التأويل، عن علامة ونقطة انطلاق، ثم يربطها تدريجيا بعلامات أخرى إلى أن تتسق شبكة العلامات وتنظم تحت قيمة أو عنوان يجمع شتاتها.

وهكذا، عبر التناول التقابلي، وخلافا لتأويلية مفتاح، كما سنرى التي تمسح في قراءة النصوص بعتاد نظري قوي من اللسانيات، والسميائيات، والشعريات الحديثة، والتداولية، ونظريات البلاغة، والذكاء الاصطناعي، والتيارات التأويلية الحديثة... فإن تأويلية كليبو تبتعد عن عتاد المفاهيم لتواجه النصوص بتأمل وتدبر، بحثا عن كنوزها وخفاياها، وبياضاتها، ومجالاتها الأكثر غرابة وإعتاما. فتدخل الثقافة والمعرفة الخلفية للمؤؤل، والعودة المتكررة إلى المعاجم والنحو والبلاغة لتحكم مسار دلالة على حساب أخرى.

وهذا ما يفسر لنا غياب مقدمات منهجية في كتب هذا المؤؤل الذي يبحث في صمت راهب، عن الخفي والملغز والمحير والسري في عوالم النصوص، وهو لا يبحث عن تجريب منهج معين على النصوص، ولا ترسيخ تقليد نظري تُقرأ في ضوءه، وإنما يجرب القراءة والتأويل بكل معاناتهما ومكابداتهما، ودهشتهما وفرحتهما بالاكشاف والانتصار على الخوف من الضياع والتهيه عن طريق العودة. وبدلا من النظرية والمنهج الصارم يستعين بالثقافة والذخيرة والموسوعة، فيكون التأويل هو حصيلة مواجهة استكشافية بين الذات والنص والثقافة، إنه ثالث المرايا المتقابلة.

"الحكاية والتأويل" هو الكتاب الذي يضم خطاب التأويل الذي نستغل عليه، يحاول أن يعيد الاعتبار لنصوص من السرد العربي القديم، منتقاة وفق اختيارات ذاتية، لا يلتزم فيها المؤؤل -كما تصرح بذلك المقدمة- بأية قيود منهجية أو خطوات إجرائية عملية لحظة القراءة، لذلك سنحاول عبر الميثا-خطاب تمثل مستوياتها وتحديد

آليات عملها. قال: "كيف سأتناول كلام الجرجاني؟ هل سأفسره انطلاقاً من افتراض أقوم بتركيبه؟"<sup>(31)</sup>.

تبين مثل هذه التساؤلات التأويلية- وهي حاضرة بقوة في بعض أعماله- أن المؤوّل لا يتقيد بخطوات منهجية في القراءة، ولا يخضع لأدوات جاهزة. إن النصوص المختارة للتأويل هي مجال اهتزاز وانتظار مقلق على حد تعبيره في "الكتابة والتناسخ" وهي أرض غريبة تحار فيها الأقدام وتختلط الاتجاهات لغياب نقطة مرجعية مضمونة<sup>(32)</sup>.

وفي كل الأحوال فإن تأويلية كليبوط تضر ترابطاً منطقياً بين آليات عاملة في خطابه، كما سنرى، وهي الافتراض، والفهم، وبناء المعنى، والترجيح، والتحقق عبر الأشباه والنظائر، ومواد السياق، والمراجعة. إن الخطاب التأويلي يحتوي أدواته الإقناعية لأنه صادر عن عقل يتدبر المعنى في النص ويدقق في حدود انسجامه مع مرجعيته وموازياته. كما يتحصن الإجراء التأويلي في إقناعه بعدة إمكانيات، منها العودة المتكررة إلى المعجم؛ فالكلمة الغامضة عندما تعرض على مرجعها اللغوي تفتح للمؤوّل آفاقاً رحبة للقراءة، وهو يعترف بهذا: "عندما تقرأ نصاً على ضوء لسان العرب، فإنك تفاجأ بدلالات وعلاقات لم تكن في الحسبان، إنني مدين بالكثير لابن منظور"<sup>(33)</sup>.

يحضر المعجم ومواده ليعزز دلالة، أو ليشبعها، أو ليغنيها، أو ينقضها، أو يوسعها ويفصلها. وكذلك عبر استحضار الأشباه والنظائر النصية التي لها بناء مماثل أو تعالج قضية مشابهة، وذلك في أفق تشييد معنى تستقيم فيه المقدمات مع النتائج. ويتم الاستجداد بالكتاب التراثي، الذي يحضر بثقله في فضاء التأويل، لما يقدمه من عناصر استبدالية

(31) كليبوط، الحكاية والتأويل، م.م، ص. 12.

(32) عبد الفتاح كليبوط، الكتابة والتناسخ، م.م، ص. 75.

(33) نفسه، ص. 78.

تسند المؤؤل في إبحاره القرائي، ويظل السؤال مفتاحا سحريا لسبر أغوار النصوص، بل وفي أحيان كثيرة لإفحام القارئ في حلبة المواجهة مع النص.

هذه مجموعة مظاهر أو تقنيات تأويلية من بين أخرى، هدفنا من تقديمها إعطاء صورة مختصرة عن إشكاليات التأويل وأدواته التي يثيرها الكتاب، لفهم على ضوءها - وعبر إستراتيجية التبع التقابلي دائما - مستويات قراءة النص المنقبي.

### 3-2- مفتاح مؤؤلا

تنطلق تأويلية مفتاح عموما من هاجس معرفي وقرائي يكاد يسري على جل أبحاثه، وهو يقوم على البحث عن طرائق جديدة وملائمة لتحليل النصوص والخطابات. وفي كتبه الصادرة: "تحليل الخطاب الشعري"<sup>(34)</sup>، "دينامية النص"<sup>(35)</sup>، "مجهول البيان"<sup>(36)</sup>، "التلقي والتأويل"<sup>(37)</sup>، "التشابه والاختلاف"<sup>(38)</sup>، "المفاهيم معالم"<sup>(39)</sup>، "وغيرها، تظهر جدية التساؤل المستمر والعميق عن تأويلية شمولية وعميقة، تستفيد من مرجعيات مختلفة وتؤسس أنساقها الخاصة بها.

إن الخيط الرابط والهـم الرئيس الذي ينظم هذه الكتب هو تأويل ظواهر نصية مختلفة في أجناسها: شعر قديم، شعر حديث، قصة،

---

(34) تحليل الخطاب الشعري، مرجع مذكور.

(35) دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.2، 1990.

(36) مجهول البيان، مرجع مذكور.

(37) مرجع مذكور.

(38) التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1996.

(39) المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1999.

منقبة، نص قرآني، كتب بلاغية، كلامية... وذلك بهدف الوقوف على خصوصياتها وتقديم نماذج للقراءة، منطلقها الدراسة والتعرف الدقيق على البناء التحتي القاعدي لكل نوع، تسنده في ذلك ثقافة عربية تراثية متينة، وإطلاع واسع على المنجزات والمقترحات النظرية الغربية ذات المنابع المختلفة.

يأتي كتاب: "مجهول البيان" -والذي يتضمن الخطاب التأويلي الذي يعنينا- لإعادة النظر في البيان العربي، ومحاولة تجاوز عجز البلاغة القديمة عن فهم أشكال فنية جديدة مثل: اللوحة التشكيلية، والشريط السينمائي، والكرامة الصوفية.. وذلك في أفق الإسهام في حل مسألة الاستعارة السياقية، لأن ما تركه البلاغيون القدماء -كما يرى- لا يفيدنا في حل الاستعارات النصية، أي الاستعارة التي يمثلها النص كاملاً<sup>(40)</sup> لا التراكيب الجزئية المرتبطة بالاستعارة داخل الجملة.

إن مسوغ دراسته لنص منقبي هو تظهير المفاهيم النظرية التي قدمها، ويبين أن اشتغاله التأويلي وراءه مفاهيم وفروض وقواعد، وليس ممارسة معزولة عن خلفياتها النظرية، بل هو تكميل وتوضيح وتظهير لما قدمه في الفصول التي سبقت من الكتاب والتي تناولت: التعريف الأرسطي، والشجرة الفورفوروية، والخلفية التي تحكم إجراء الكتابة، والمجاز المرسل، وآليات التقييس في التشريع والفقه، وكذا قضايا العلم المعرفي، والتيارات التأويلية العقلانية قديمة وحديثة.

إن تأويل المنقبة الصوفية جزء من كتاب نظري صرف يعالج مسألة الاستعارة النصية، والاستعارة السياقية، ويقدم زادا ثميناً حول نظرية التأويل.

---

(40) ينظر مجلة آفاق الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب، في سبيل فهم جديد للنقد، حوار مع محمد مفتاح أجراه محمد الدغمومي وسعيد يقطين ع.7، 1980، ص.16.

### 3-3- النص الكرامي موضوع القراءة

#### 3-3-1- أبو سهل والجمل (كَلِيطو)

"ورد من بلاد المشرق فدخل المغرب ونزل برباط تاسماطت من عمل مراكش، فمات به، وقبره معروف يتبرك به إلى الآن. ونقل الخلف عن السلف أنه جاء من المشرق على قدميه، وعلى عاتقه مخلاته التي جعل فيها كتبه، فمشى يوما إلى أن كلمه جمل بإزائه فقال له: يا أبا السهل اجعل مخلاتك عليّ لتستريح من حملها".<sup>(41)</sup>

#### 3-3-2- أبو زكريا يحيى بن لا الأذى الرجراجي (مفتاح)

"من أهل بلد ونكيلة بوادي شفشاون، قديم الوفاة، وكان قد رحل إلى المشرق رحلته التي حج فيها، وكان عبدا صالحا مجاب الدعوة، حدثوا عنه أنه أخذ ذات يوم منجله لقطع شجر السدر، فبينما هو يقطعه إذ صادف رجل قفز فكسرها، فأكلمه ذلك وقال: اسمي يحيى بن لا الأذى فإذا أنا يحيى بن الأذى، أؤدي خلق الله. فأخذ القنفذ فربط رجله بحبائر وأدخله في خابية، فكان يسقيه الماء ويطعمه التين والزبيب إلى أن انجبر فذهب".<sup>(42)</sup>

نورد هنا المنقبتين - موضوع القراءة - عبر مقابلهما وجها لوجه، ليستأنس القارئ بعوالمهما المتحركة، وي طرح على نفسه أسئلة مختلفة عن خطاب تأويلي مفترض. كيف يمكن تأويل هذين النصين؟ وهل هما فعلا محتاجان إلى كل هذا الجهد التأويلي؟ وإذا كانا كذلك فما هي الأدوات والقنوات القرائية التي تمكننا من قراءتهما؟ وماذا يمكن أن نستفيد من الخطاب التأويلي نفسه، ومن تحليل خطاب التأويل

(41) كَلِيطو، الحكاية والتأويل م.م، ص. 59.

(42) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 116.



وفق إستراتيجية تقابلية؟ هل يقدم لنا جديدا، أو يزودنا بنموذج قرائي موسع؟

نحن بدورنا نتساءل عن عناصر مقارنة كل مؤوّل، وعن حدود تفاعل المرايا المتقابلة أثناء الاشتغال، وعن حدود إسهام المستويات البنائية النصية إلى جانب موازياتها ومقابلاتها السياقية في عملية القراءة.

#### 4 - خطاب الوصف والتأويل

##### 4-1- تأويل الافتراض ومستوى بناء القصة

ينطلق التأويل عند كليطو من محاولة إعادة بناء فضاء القصة، فهي كما لاحظنا مختزلة ومكثفة، وتحتاج إلى توسيع وتمطيط لملء بياضاتها، إنها خالية من كل تعليل للأفعال والأحداث، وإضافة إلى ذلك فإنها على ما يظهر تفتقر إلى نهاية، إلى تنمة أو تكملة، فيتعين على المؤوّل إذا بسط النص واستحضر أقسامه الغائبة: البداية، التفرعات المفترضة، النهاية، بناء على فهم النص أولا، وربطه بغيره من النصوص وسياقه الإنتاجي والثقافي العام ثانيا.

إن افتقار النص المنقبي إلى العناصر القصصية كاملة يدفع المؤوّل إلى عدم الالتزام بفضاءه الضيق الذي ترسمه اللغة، والانفتاح على كل العناصر السياقية التي تتقاطع معه أفقيا، ممثلة في نماذج سردية مشابهة سواء ما ورد في كتاب "التشوف" أو بما تزوده به الثقافة السردية عامة. سمينا هذا الإجراء بتأويل الافتراضات، لأن القصة التي أعاد المؤوّل كتابتها مبنية على الافتراض، افتراض ما يمكن أن يكون قد وقع، وافتراض مبررات لما وقع. "لماذا قطع أبو سهل الطريق على قدميه؟ هل لفقره وإدقاعه؟ هل تشبها بالحُجاج؟ لماذا طلب الجمل من أبي سهل أن يجعل عليه مخلاته؟ وبأي لهجة خاطبه؟ توددا أم نصحا أم

سخرية؟<sup>(43)</sup>

عبر الافتراض، يتسنى للمؤؤل توسيع نواة دلالية في النص، شديدة الافتقار إلى رسم أبعاد الحدث ودوافعه وكيفياته، والافتراضات المقدمة لا تحظى كلها بالمقبولية، وإنما يتم اختيار إحداها بناء على فعل ترجيحي: "ماذا حدث للجمل بعد أن كلمه؟ ماذا كان رد فعل هذا الأخير؟ هل استجاب للدعوة المقدمة إليه؟ هل وضع المخلاة على ظهر الجمل ليستريح من حملها؟"<sup>(44)</sup>

يرجح المؤؤل فعل القبول مبررا إياه: "لاشك أنه لبي الدعوة لأنها بصدورها عن حيوان غير ناطق أصلا، شيء خارق، شيء يدل على تدخل قوة تتعدى الفهم العادي... فليس بوسع أبي سهل إلا أن يمثل للأمر ويستريح من حمل الكتب"<sup>(45)</sup>.

وهكذا فإن تأويلية كليطو في إعادة بناء القصة تقوم على مستويين مترابطين: مستوى الافتراض، وعبره يتم تفريغ القصة وتشعيب أحداثها، وفيه ضمان تطورها وتنميتها، ومستوى الترجيح الذي يستند إلى ثقافة المؤؤل واجتهاده وقدرته على بناء صيغة من صيغ الملاءمة بين النص ومرجعياته التي صدر عنها، والتي يتقاطع معها في كثير من العناصر (البناء المختزل، اللغة الرمزية، الخرق والعجائية، والوظائف، والمقاصد.

كما يتم اللجوء إلى المعجم لاستقصاء الدلالات الممكنة للكلمة في التواضع والعرف، والاستنارة بإضاءاتها في حالات الإعتام والغموض. وتحضر الأشباه والنظائر لتزكي تخريجا على حساب آخر، ويقدم الكتاب التراثي في هذا المستوى عناصر ومواد استبدالية، أو توسيعية هامة تغني القراءة وتسندها.

(43) كليطو، الحكاية والتأويل، م.م، ص. 59.

(44) نفسه، ص. 66.

(45) نفسه، ص. 66.

#### 4-2- النص المنقبي في مرآة سياقه

إن الاشتغال التأويلي عند كليطو، في قراءته للنص المنقبي، كما في النماذج الأخرى التي تضمنها كتاب "الحكاية والتأويل"، يستند إلى عناصر نصية وأخرى سياقية خارجية، فالمؤشرات اللغوية، والبلاغية، والرمزية، وعلاقاتها بمساقها الداخلي يتم تفعيلها وإعادة بهجة الدلالة إليها، عبر مؤشرات استبدالية تقدمها الذاكرة الجمعية، والموسوعة، والثقافة، والتاريخ. ومن هذه المؤشرات البنائية النصية نجد مثلاً: القرشي من قريش، القبر والقدمين، اسم أبي سهل، المخلاة، المشرق والمغرب...

ومن المؤشرات الاستبدالية السياقية، كذلك، التي لا يستوعبها فضاء النص ولكنه يستدعيها نجد مثلاً: قصة النبي سليمان، قصص أولياء آخرين من كتاب "التشوف" والإحالة المتكررة على ابن الزيات، إلى درجة نحس فيها أن تأويل هذا الكتاب ككل مختزل في تأويل نص واحد منه. إنه تأويل خطي متداخل العناصر والمستويات، لا يتبع إجراءات تجزئية معينة، وإنما يؤمن بحريته، دون أن ينبهر بنتائجها، يسجل قراءته ضمن فضاءات القراءات الممكنة ولا يفرضها. كما أن لا أحد يملك معايير دقيقة للحكم عليها بالصحة أو الصلاحية، وهو نفسه لا يتساءل ما إذا كان الجمل قد كلم فعلاً أبا سهل، وإنما يسلم بذلك.

إن الذي يهمنا هو إبراز التداخل والتقاطع والتساند بين آليات الدلالة في النص، مع مجموعة أشكال معرفية خارجية لحظة القراءة، وتلميع هذا النمط القرائي القديم<sup>(46)</sup>، بإزالة التراب والغبار عنه، وإجلاء

---

(46) اعتبرناه شكلاً قرائياً قديماً لتحقيقه بأعلى درجات التماسك والشمولية في الخطاب التفسيري، وخطاب الشروح الشعرية، وغيرها. وقد وقفنا على تجلياته بدقة في تفسير جلال الزمخشري وعماد الدين بن كثير، وفي شرح المرزوقي، والعكبري وغيرهم. انظر الخلاصات المتعلقة بذلك في "التأويلية العربية" م.م، ص. 185 وص. 218.

حدوده التأويلية، ثم اقتراح نماذج قرائية بديلة من خلاله.

### 4-3- التأويل وإجراء الاستعارة السياقية

تقوم تأويلية مفتاح، كما أشرنا، على ترابط وثيق بين التنظير والتطبيق، وهو يحاول في كتاب "مجهول البيان" تطبيق مفاهيم الاستعارة السياقية على أشكال سردية. فيشغل على النص باعتباره مجموعة استعارات جمالية، تؤوب إلى استعارة نصية ثم استعارة سياقية. ويهدف الباحث المؤول إلى اختبار النظرية المقترحة<sup>(47)</sup> ليرى مدى ملاءمتها لتحليل المناقب والكرامات، كما لاءمت الأقاصيص والحكايات. ولأجل ذلك وظف في خطابه مفاهيم متعددة مثل: الواقع، والعالم الممكن، ودينامية عالمي النص، وتشعب النص، والتلاصق، والتماثل، وبناء عالم الإمكان، واستعارة الجمل، واستعارة النص، واستعارة السياق، وغيرها.

يستند التأويل عند مفتاح على جهاز نظري، وفروض وقواعد ومفاهيم، وهو ما ساعده على اكتشاف الثنائيات التي تقوم عليها حياة النص: الوجه الظاهري/ الوجه الباطني، المعنى الحرفي/ المعنى المجازي، عالم الواقع/ عالم الإمكان، الموضوع الأول/ الموضوع الثاني، المشبه/ المشبه به.

وبما أن النص المنقبي ليس بريئا في قصديته، فإن المؤول يجتهد في الوقوف على موازيات باطنية للظاهر، فالمضمون الحرفي مؤشر على مضمون أعمق. والنص المنقبي الذي اتخذه موضوعا للتظهير يمثل حالة وسطى بين مناقب واضحة الدلالة وأخرى غامضة وشديدة الانزياح عن الواقع.

ويتضح من هذا أن تأويلية مفتاح تخضع لمنهجية دقيقة في العمل، تنطلق من هم معرفي صرف وهو توسيع إجراء الاستعارة السياقية على

(47) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 16.

أنواع نصية كثيرة، ويعتمد مفاهيم وإطارا نظريا منظما، قائما على التسلسل والتدرج والالتزام بالحدود التي ترسمها المقدمات النظرية.

#### 4-4- النص في مرآة السياق مرة أخرى

إن الظاهرة النصية، كما يرى المؤول، ترتبط بضرورات إنسانية، ومن ثمة تشملها قواعد عامة، فكونها أدبا يفترض أن يوجد فيها ما هو ضروري للحياة. وما يدل على الجنس وعلى التدين. وقواعد خاصة؛ فكون النص منقبة فإنه يفترض فيه أن يتحدث عن بطل وعن أفعال خارقة، ويثير المفاهيم التي سيوظفها وهي التفاعل النصي، والاستعارة التفاعلية.

إن كون النص منقبة دفع مفتاح- شأن كليلطو- إلى وضع افتراضات عديدة للمناحي الدلالية في النص والمرتبطة خاصة بعالم الإمكان. وهكذا يتبدى أن أول خطوة قرائية كيفما كانت إستراتيجية المؤول هي الافتراض المرتبط بالمعاني الممكنة أو الوقائع المحتملة أو غيرها، سواء تم التصريح بتلك الفرضيات ودونت أم لم يصرح بها، لأنها إجراء طبيعي تلقائي يعمل لوحده عند استقبالنا لظواهر جديدة علينا، توجهنا في ذلك مؤشرات نصية ظاهرية ومعارفنا الخلفية، فيشكل المعنى وتتقدم القراءة إلى الأمام أكثر فأكثر.

ثم إن النص المنقبي -سواء كان حرفيا أو رمزيا- قابل للبحث فيه عن دلالات باطنية، ومع ذلك فالقراءة التأويلية لا بد وأن تخضع لقيود محددة تعصم من الهذيان، وتحد من إمكانية التزيد على النص<sup>(48)</sup>.

يلعب مفهوم التفاعل النصي دورا مركزيا في إبراز الحركية القائمة بين عالمي الواقع والإمكان في النص، وبوساطته يمكننا أن نجرب "أ" كـ "ب" ولكنه ليس "ب"، فالسفينة (لعبة الأطفال) لها خصائص السفينة،

(48) مفتاح، مجهول البيان، م.م، ص. 120.

ولكنها لا تقوم بالوظائف الحقيقية للسفينة. ومثل ذلك الصوفي فهو إنسان ونبي أو نصف إله، فهو إنسان عادي وليس إنسانا عاديا، وأدب المناقب يقوم على خاصية التماثل والتفارق وهي مصدر توتر الدلالة فيها؛ فالبطل يخرق سنن الطبيعة، وتتسم أفعاله بكل ما هو عجيب. عبر هذه الخصائص العامة يتقدم التأويل في الأراضي الرخوة للحكاية، وهي فضاءات للرموز والمعاني قلما تصمد فيها الأقدام.

اسم الصوفي من المؤشرات النصية التي يمكن اتخاذها مدخلا للقراءة، كما حصل مع كَليطو، ولذلك يستعين مفتاح برمزية أسماء الأعلام، فاسم أبي زكريا يحيى بن لا الأذى من صفاته أنه محبي وغير مؤذ، لكن عمله هو الإيذاء والإحياء حسب النص، فالنص إذاً تمطيط للاسم. وبعد ذلك يتقدم التأويل خطوة أخرى للبحث عن إواليات نمو النص، وخاصة إواليه التلاصق، أي ترابط الكلمات والجمل فيما بينها، وكذا تشارك الجمل والفقرات مع سابقتها في المعنى لبناء عالم الإمكان الذي هو هدف التأويل، الأمر الذي ظل هاجس كَليطو كذلك.

اعتبر المؤول العالم المتحقق في النص مشبها به، وعالم الإمكان مشبها، فجعل الإله هو الصوفي والإنسان قنفذا والمعصية منجلا، وفي مقام ثان جعل النص مشبهاً وعالم الإمكان مشبها به، الصوفي إله، والقنفذ إنسان والمنجل معصية ليؤكد التماثل بين عالم الواقع وعالم الإمكان في النص. ثم يستعين بالفصول النظرية من الكتاب، متدرجا من استعارة الجمل إلى استعارة النص ثم استعارة السياق.

ففي استعارة الجُمْل يلجأ المؤول إلى التحليل بالمقومات، لبيان حدود التشابه والتماثل بين كل عنصر من عناصر الواقع ونظيره من عالم الإمكان، وهو في هذا المستوى، يلتقي مع كَليطو في بناء قراءته على المقومات الدلالية للكلمات واستخدام المعاجم اللغوية. ومن استعارة الجملة ينتقل إلى استعارة النص، إذ هو سلسلة من الاستعارات متفرعة

عن استعارة نواة، ثم تسلمه استعارة النص إلى استعارة السياق، وهي مجموع الاستعارات المتضام بعضها إلى البعض، وتوازي الخلفية الثقافية والاجتماعية. وقد ركز فيها مفتاح على التدين الشعبي وعلى غريزة المحافظة على الحياة والجنس.

## 5 - تأويل التأويل

استطاع المؤول عبر مفهوم الاستعارة النصية والسياقية استقصاء مناحي الدلالة الظاهرة والباطنة في موضوعه التأويلي، وفي هذا تأكيد لما انطلقنا منه، وهو أن اشتغال أفعال التأويل يتساند فيها، في كل الأحوال ما هو نصي وما هو سياقي، ويظل الاختلاف في المفاهيم والأدوات والإستراتيجيات التأويلية حاضرا وفارضا نفسه باستمرار، أما الثوابت فتظل هي نفسها.

اعتمدت تأويلية مفتاح على عالم الإمكان في عملها، وعلى مقومات بنائية نصية: استعارة النص، المعجم، التحليل بالسمات، استعارة النص، التماثل، التلاصق، وعناصر خارجية سياقية: استعارة السياق، التدين الشعبي، هبة السلطة السياسية، المحافظة على الحياة.... وقد تبين لنا كذلك في خطاب التأويل عند كليبو أنه يعتمد قواعد مضمرة، وآليات عمل تؤمن بتساند قنوات الدلالة في النص مع قنوات يمد بها الفضاء التناسي الواسع وذخيرة المؤول والعلوم المرجعية.

## خلاصة:

يمكن التمييز داخل الخطابات التأويلية المرتبطة بالأدب بين نمطين من التأويل، نمط أول يستعين بإجراءات تحليلية وتأويلية أصلها منهج نقدي، حيث يصبح التأويل تجليا لبنية مجردة قوامها تصور معين لأدب: الأدب موضوع للدراسة النفسية، الأدب موضوع للدراسة السوسولوجية... الخ. ونمط ثان يصبح بموجبه النص موضوعا للمعرفة،

وداخل هذا النمط المتحلل من أية التزامات منهجية، صغنا فرضية مفادها تساند المستويات البنائية النصية فيما بينها لحظة القراءة لتثيد المعنى، وانفتاحها على كم غزير من النصوص المشابهة والمعارف القبلية والمواد المعجمية والأطر المعرفية والثقافية.

ومهما كان التنويع واضحا في الإجراءات التأويلية وأدوات الاشتغال، وكانت المنطلقات والدوافع والمشاريع القرائية متقاصية، فإن التأويل يتخذ مسارا دائريا، يبتدىء من النص وينفتح على السياق ليعود إلى منطلقه. وقد تبين لنا من النموذجين المختارين لمؤولين مغربيين معاصرين-عبر المقاربة التقابلية التي تشمل النصوص كما تشمل خطابات التأويل-أن الإستراتيجيات التأويلية وإن تباينت فإنها تلتقي في الاشتغال على دوائر النص الصغرى: المعجم، والتراكيب النحوية، والتراكيب البلاغية، والرمزية، والعلاقات بين البنيات النصية، والجزء والكل، والتفاعل، والتماثل، والتلاصق... وعلى دوائر كبرى تلعب دور التوسيع ممثلة في عناصر السياق الخارجي: ملابسات إنتاج النص، وصاحبه، وموازيات نصية، والأشباه والنظائر، والظرف الاجتماعي والسياسي، والعلوم المرجعية...ومن كل ذلك فإنه لا وجه للنص إلا في مرايا سياقه، وبالأخص مرآة انفتاح القنوات وتساند الآليات التي يسهر على إضاءتها المؤول، إذ لا تأويل ولا صورة في العتمة.



## الفصل السادس

### البناء التقابلي في خطاب الحكمة نموذج من "المحاضرات" للحسن اليوسي<sup>(1)</sup>

"إذا كان القَدَرُ حقًا فالحرص باطل، وإذا كان الغَدَرُ في الناس طيبة فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت نازلاً بكل الناس فالطمأنينة إلى الدنيا حمق" بزر جمهر الفارسي

#### تقديم

نقترح في هذا الفصل، دعماً لما وقفنا عليه في الفصول السابقة، نصين من كلام الحكماء، لنبرز مرة أخرى تحكم البناء الذهني التقابلي في إنتاج الخطاب، محاولين التدليل على أن التقابل يمكن الوجود، بل يؤسسه؛ كما أنه يشكل العمود الفكري لأنساق التواصل. والتقابل - كما بينّا - هو مجاورة المعاني بعضها البعض، والتقريب بينها على مستوى التصور والتعرف والإدراك، إذ إن خير وسيلة لفهم الآخرين هي عرض الحقائق والأفكار عن طريق مقابلتها ببعضها، بأي منحى أو

---

(1) الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، الملقب بصاعقة العلوم، من أكابر علماء المغرب في عصره، فقيه، محدث، لغوي، أديب، مؤرخ، صوفي فاضل، قال في حقه صاحب الرحلة العياشيّة:

من فاته الحسن البصري يدركه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه له مؤلفات نفيسة منها: المحاضرات، وقانون أحكام العلم، وزهرة الأكم في الأمثال والحكم، ومنع الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب، والكوكب الساطع في شرح جمع الجوامع، والقصيدة الدالية وشرحها وقد سماه: نيل الأمانى من شرح التهاني، وغيرها. توفي رحمه الله عام 1102هـ.

شكل يتخذه التقابل: الترادف، أو التضاد، أو التماثل أو غيرها. قال ابن رشيق القيرواني: "والناس متفقون على أن جميع المخلوقات مخالف أو موافق أو مضاد"<sup>(2)</sup>. وقال الغزالي: "الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها"<sup>(3)</sup>.

وبما أن التقابل أساس الحياة وعصبها فقد بنوا عليه القول، وتوصلوا به في الإنتاج وصناعة المعنى. قال ابن سيده "ومقابلة الشيء بنقيضه أذهب في الصناعة"<sup>(4)</sup>، غير أن التقابل كما ذكرنا يتجاوز النقيض وحده، ليسع أنماطا أخرى مثل الترتاب، أو التحاذي، أو التوازي، أو الترادف، أو التخالف، وغير ذلك من الإمكانات التي يبنى عليها الخطاب. وننبه هنا أن آلية التقابل التي نتكلم عنها غير مفهوم المقابلة الذي تناولته البلاغة العربية، مع أنه يحتويها، بل هي تجل من تجليات التقابل. إن التقابل المقصود هنا مفهوم موسع، ذلك أن البلاغيين القدامى نظروا إلى المقابلة نظرة أفقية تركز على معاني الألفاظ، حيث إن المعاني المتوافقة يجب أن يقابلها على الترتيب ما يقابلها.

إن خاصية التقابل لها بعد كوني وإنساني وإنتاجي وبلاغي وتأويلي؛ وكما توقفنا عند تحققه وتجلياته في نص "الفاتحة" الكريمة، وفي نص مالك بن الريب، ونص "نسر" لعمر أبو ريشة، فإننا سنقدم نموذجين آخرين يسندان تصورنا النظري والتأويلي، فهو آلية فعالة في صناعة النصوص، وآلية قرائية وتأويلية لها أهمية قصوى في التحليل.

(2) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1997، ج. 1، ص 583.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، م.م، ج. 3، ص. 27.

(4) ابن سيده، شرح المشكل من شعر المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1976، ص. 217.

وسواء كنا واعين أو غير واعين بها فإنها حاضرة ضمناً، ويكفي التنبيه القليل للوقوف عليها وإدراك أسرارها.

أورد اليوسي في كتابه المحاضرات، وتحديدًا ضمن الباب المتعلق بكلام الأذكياء، نصاً في الحكمة ارتأينا أن نجعله موضوعاً لقراءة تقابلية تدعم بعض الجوانب التصورية والمنهجية التي أشرنا إليها: قال بزرجمهر الفارسي: "نصحي النصحاء، ووعظي الوعاظ، فلم يعظني أحد مثل شيمي، ولا نصحي مثل فكري، واستضأت بنور الشمس وضوء النهار، فلم أستضيء بشيء أضوأ من نور قلبي. وكنت عبد الأحرار والعبيد، فلم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواي. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إلي من نفسي. وزاحمتني المضايق فلم يزاحمني مثل الخلق السوء. ووقعت في المضار العظيمة، فلم أقع على أضر من لساني. ومشيت على الجمر، ووطئت على الرمضاء، فلم أر ناراً أحر من غضبي إذا تمكن مني. وطلبني الطلاب فلم يدركني مثل إساءتي. وفكرت في الداء القاتل ومن أين يأتيني، فوجدته في معصية ربي. والتصمت الراحة لنفسي، فلم أجد شيئاً أروح لها من ترك ما لا يعينها. وركبت البحر وعانيت الأهوال، فلم أر هولاً أعظم من الوقوف بين يدي سلطان جائر. وتوحشت في البراري والجبال، فلم أر أوحش من قرين السوء. وأكلت الطيب وشربت المسكر وعانقت الحسان وركبت الجياد، فلم أجد ألد من العافية والأمن. وأكلت الصبر وشربت المر، فلم أر شيئاً أمرّ من الفقر. وشاهدت الزُحوف وعانيت الحتوف، فلم أر مثل المرأة السوء. وعالجت الأثقال ونقلت الصخر، فلم أر حملاً أثقل من الدين. ونظرت فيما يُذلّ العزيز ويكسر القوي ويضع الشريف، فلم أر أذلّ من فاقة وذو حاجة. ورُشِقت بالتشّاب وشُدّدت في الوثاق وضربت بعمد الحديد، فلم يهدمني شيء مثل ما هدمني الهم والحزن. واصطنعت الأخدان وانتخب الأقوام للعدّة والشدة النائية، فلم أر شيئاً

خيرا من التكرم عندهم، وطلبت الغنى من وجوهه، فلم أر غنى أغنى من القناعة، وتصدقت بالذخائر، فلم أر صدقة أنفع من رد ضالة إلى الهدى. ورأيت الذل في الغربة والوحدة، فلم أر أذل من مقاساة جار السوء، وشيدت البنيان لأعتر به وأذكر، فلم أر شرفا أرفع من اصطناع المعروف. ولبست الملابس الفاخرة، فلم أليس مثل الصلاح. وطلبت أحسن الأشياء عند الناس، فلم أجد شيئا أحسن من حسن الخلق، وسُريت بعطايا الملوك وجوائزهم، فلم أُسرَّ بشيء أعظم من الخلاص منهم<sup>(5)</sup>.

الحكمة خطاب تتفاعل في صناعته عناصر المعنى واللفظ، والتركيب، والتوزيع، والإيجاز، والوضوح، والقصد إلى التوجيه؛ ولذلك فالقائل يجد نفسه موجها بأدوات بلاغية ترفع خطابه إلى درجة التماسك والانسجام المؤدي لتفاعل إيجابي معه، يتجاوز حدود التلقي إلى مستوى التداول والانتقال من جيل إلى آخر، ومن أمة لأخرى.

تتداخل في خطاب الحكمة المعرفة بالحياة والكون والناس والوجود والحال والمآل، ثم الإبداع والقدرة على إحكام الصناعة. ومن أهم سمات خطاب الحكمة التقابلات البنائية اللفظية والمعنوية والتركيبية والأسلوبية والبلاغية. وهي سمة لا تقتصر على النص موضوع المقاربة هنا، وإنما تطول الأمثال العربية والحكم والحكايات، وأبيات الشعر الحكمي التي يزخر بها التراث الإنساني. وسنحاول في هذا المقام، تأكيداً لما نقرحه حول جماليات التقابل في صناعة الخطابات وتأويلها، محاورة هذا النص كما حاورنا غيره، استمتاعاً بجماليات التقابل وبلاغته، وتوجيهها للقارئ للوقوف بنفسه على مداخلها وأسرارها في نصوص وخطابات أخرى.

---

(5) الحسن اليوسي، المحاضرات، أعدها للطبع: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976، ص.ص. 224-225.

من معاني الحكمة: الفهم، والورع، وكذا العمل المتصف بالإحكام. قال اليوسي: "وقد صفا لنا أنها عبارة عن العمل المتصف بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله تعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق والعمل به، والصد عن اتباع الباطل"<sup>(6)</sup>. والحكمة عند الغزالي "حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية"<sup>(7)</sup>.

إن الحكمة إصابة للحق من غير بُوة، إصابة على مستوى القول والفعل والفهوم. ويشير اليوسي<sup>(8)</sup> إلى أن الحكمة تتعلق بالقلوب والجوارح والألسنة؛ فأما ما يتعلق بالقلوب فهو الإصابة في المعتقد وتصور الحقائق، واتباع فضائل الأخلاق من حلم وعفو وعفة وعدل. أما الأيدي فما تعلق بالصنائع وإتقانها. وأما على مستوى الألسنة فالقصد إصابة المعاني في قالب تعبيرى بليغ. وقد اشتهر العرب بحكمتهم القولية، واشتهر اليونان بحكمتهم القلبية، والصينيون بحكمتهم اليدوية. ولذلك قيل: أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء في الجسد: قلوب اليونان، وألسنة العرب، وأيدي أهل الصين<sup>(9)</sup>.

نقترب من الحكمة الفارسية لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن". أما هدفنا التحليلي فهو تتبع مستويات بناء المعاني، والإفادة من المضامين، لمتابعة تجليات التشكلات التقابلية في الخطاب، وما تبني عليه من مقدمات وتوابع. وسنجد أن بنية الخطاب الحكمي تقوم على التقابل بجميع ألوانه من المفارقة،

(6) الحسن اليوسي، زهرة الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. 1، 1981، ج. 1، ص. 26.

(7) الغزالي، إحياء علوم الدين، م. م، ج. 1، ص. 54.

(8) اليوسي، زهرة الأكم، مذكور، ص. 28.

(9) نفسه، ص. 28.

والتماثل، والتضاد، والسببية وغيرها.. وكما يقال: بأمثالها تبيين الأشياء. وقيل: بضدها تُتَبَيَّن الأشياء، كما تتبين عبر المقابلة بأنواع أخرى من العلاقات: بمرادفها وتوابعها وأسبابها ونتائجها. ونحن ساعون- عبر نماذج نصية مختلفة - لمتابعة جماليات التقابل والأنس بها، وكذا إيناس الآخرين وإفادتهم، ومن قرع الباب وَلَجَّ وَلَجَّ.

يتأسس خطاب الحكمة في هذا النص على تقابل مركزي أو نووي تتفرع عنه بقية التقابلات وهو: الذي حصل واقعيا وظهر أنه لا يجدي، والذي ثبت وصح وتبين للحكيم أنه أجدى وأنفع. غير أن لهذا التقابل -كما سنرى فيما بعد- وجه آخر وهو العالم الخارجي والذات، أو أثر الواقع مقابل أثر حركة النفس؛ فكل ما هو خارجي تبين أنه ناقص أو مزيف، وكل ما استخلصته النفس والوجدان والعقل والقلب تبين أنه حقيقي، إنه تقابل الحقائق والأوهام كما رأينا مع الغزالي. إنها العودة إلى الفطرة بعد التجريب، والدواء بعد رحلة الألم.

لا بد أن نُذَكِّر هنا، بأن بزرجمهر كان وزيرا لكسرى أنو شروان الذي كان له ولع بالعلم والأدب، وحين سمع بكتاب كليله ودمنة وما فيه من الحكمة سعى في طلبه، فكلف بزرجمهر وزيره أن يبحث له عن رجل أديب عاقل يعرف لغة أهل الهند، ويكون حريصا على طلب العلم والأدب. الرجل الذي توافرت فيه هذه الشروط هو بَرَزُويه، الذي يحظى بدعم أنو شروان الكامل للبحث عن كتاب كليله ودمنة وغيره مما يفيد الناس، والإتيان به. ثم يهيئ له كل ما يحتاج في سفره وإقامته هناك.

لما وصل برزويه إلى الهند اتخذ له أصدقاء منهم خازن الملك للوصول إلى الكتاب. وبالفعل يصل إلى بغيته، فيسخ الكتاب وغيره مما تأتي له من الكتب القيِّمة ثم يعود إلى بلاده، فيثني عليه أنو شروان ويكرمه، لكن برزويه كان له طلب آخر غير المال والجاه، فيطلب أن يُذَكَّر اسمه وقصة رحلته إلى بلاد الهند، وما عاناه من أجل نقل

الكتاب إلى بلاده، هذا الباب الذي كتبه بزرجمهر يتضمن متاعب الرحلة ومشاقها وجعله أول أبواب الكتاب. وتم لبرزويه ما أراد، وأبقى ذكره كما رغب في ذلك<sup>(10)</sup>.

إن الحكمة عند بزرجمهر متولدة عن المعرفة والتجربة والرحلة والاطلاع على الحكمة الهندية، فهو الحكيم المتروي، والأديب البارع الذي كتب عن رحلة برزويه إلى الهند بحثاً عن كتاب الحكمة الهندية والذي تُرجم فيما بعد إلى العربية بعنوان: "كليلة ودمنة". شخص في قيمة بزرجمهر، ليس غريباً أن تتأسس خطابه الحكيم على مستويات دقيقة في القول والحكمة، وهو - هنا - يقدم الخلاصات: خلاصات التجربة الحياتية والمعرفية، دون أن يحكي أو يسرد، وإنما يقدم تجربته الشخصية، وخلاصات علاقاته بالقيم والحياة والناس في قول موجز وبليغ.

إذا عدنا إلى النص فإننا نكتشف هذه الثنائية البدئية: من ينصح حقاً مقابل من لا ينصح؛ النصيحة الحقيقية مقابل للنصيحة الناقصة أو المزيفة. تقابل نووي أساس يعتبر قاعدة لباقي التقابلات الأخرى: "نصحي النصحاء، ووعظني الوعاظ، فلم يعظني أحد مثل شيمي، ولا نصحي مثل فكري، واستضأت بنور الشمس وضوء النهار، فلم أستضيء بشيء أضوأ من نور قلبي". يحمل هذا المقطع بعداً عميقاً وكأنه استخلاص لما عرفته حياته من تقلبات في المعرفة والفكر والتجربة والسياسة، وهو كذلك تأسيس لمبدأ العودة إلى الفطرة وإلى الذات، وهكذا تقوم هذه الخلاصات الحكيمية على: نُصح النصحاء ووعظ الواعظين مقابل وعظ الشيم الشخصية والعقل. وهو تقابل تمني يضع في الميزان طرفي التقابل ليعلي من شأن الفطرة، ويؤكد أهمية علاج

---

(10) انظر بيدبا الفيلسوف الهندي، كليلة ودمنة، تر: عبد الله بن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت. المقدمة.

النفس وتربيتها كما في الأثر: "من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر لم تنفعه الزواجر". وهو تقابل يُظهر أهمية البصيرة الداخلية، وأن الحقيقة كامنة في القلب الذي يفوق نوره، هنا، نور الشمس؛ إن العمى لا يزيله النور الخارجي مهما كان قويا، وإنما النور الداخلي الذي يملأ القلب فيستضيء به صاحبه. لا يصل العقل إلى هذه الحقيقة إلا مع طول التجربة وعمق الممارسة الفكرية والتأمل الباطني، الذي يوصل إلى أن الحقائق كامنة فينا، وأن الاهتداء إلى طرق الخلاص قائم على العودة إلى الذات في صفائها ونقاها الأولى، فالنصح والنور أمران داخليان باطنيان. وفي الحديث الشريف: "استفت قلبك". القلب منبع الفتوى وهو الموجه إلى جادة الحق. تستدعي الدعوة إلى الأمور الباطنية جهدا ذاتيا، تعباً ما، فالحقائق التي تبنى داخليا بعد البحث والاستقصاء أفضل مما يمليه الناصحون. أما العبودية والعداوة ففيهما وجهان. قال: "وكنتم عبد الأحرار والعبيد، فلم يملكني أحد ولا قهرني مثل هواي. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إلي من نفسي".

يتأسس التقابل التفاضلي في مسألة العبودية على أن يكون الشخص عبدا للآخرين أو عبدا لنفسه، فأولاهما أهون عليه من الثانية، لأن عبودية الهوى أشد قهرا لصاحبها. إنها عبودية ناتجة عن استيلاء الشهوات والانقياد لها انقيادا مطلقا، فتكبر في النفس قيم البذل والبذخ والصلف والتكبر والعُجب وتحقير الخلق وإرادة الشر. أما الإدراك الذاتي للحقائق فيؤكّد العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء. ثم تأتي التقابلات الأخرى تباعا، وهي تعرض خلاصات التجربة الحياتية: عداة الآخرين أهون لأنه يحتاط منه ويقاوم، مقابل عداة النفس لا احتياط فيه ولا مقاومة. ونوضح ذلك كما يلي:



|                |                                 |       |   |
|----------------|---------------------------------|-------|---|
| المزاحمة       | مزاحمة الشدائد أسهل             | مقابل | مزاحمة الخلق<br>السيء أصعب              |
| الإضرار        | المضار العظيمة أقل ضرراً        | مقابل | اللسان ذو ضرر<br>عظيم                   |
| الإحراق        | النار أبرد                      | مقابل | الغضب حارق                              |
| الإدراك والتيل | الإساءة مُدركة                  | مقابل | الطلاب الجادون<br>في طلبي لا<br>يدركوني |
| الإيمان        | معصية الله داء قاتل             | مقابل | الطاعة صحة<br>وحياة                     |
| مراقبة الآخرين | ترك ما لا يعنيني راحة           | مقابل | إتباع ما لا يعنيني<br>تعب               |
| السلطان        | السلطان الجائر أشد خطراً        | مقابل | البحر والأهوال<br>أقل خطراً             |
| المرافقة       | وحشة البراري والجبال            | مقابل | وحشة قرناء<br>السوء                     |
| المغالبة       | السباع تُغالب                   | مقابل | قرين السوء لا<br>يُغالب                 |
| اللذة          | لذة الأطايب والمشروبات<br>تافهة | مقابل | لذة العافية والأمن<br>أعظم              |
| المرارة        | الفقر أُمُرٌ                    | مقابل | الصبر (نبات مر)<br>أقل مرارة            |
| المعاشرة       | المرأة السيئة                   | مقابل | الزحوف<br>والحتوف                       |
| الثقل          | الصخر والجبال                   | مقابل | الدين                                   |
| الذل           | أسباب الإذلال                   | مقابل | ذل الفقر<br>والاحتياج                   |
| الإيلام        | التوثيق والضرب                  | مقابل | الجرح والهم<br>والحزن                   |
| الصحبة         | اصطناع الصحاب                   | مقابل | التكريم                                 |

|                    |                               |       |                     |
|--------------------|-------------------------------|-------|---------------------|
| الامتلاك           | الغنى المادي                  | مقابل | القناعة             |
| هداية الناس        | التصدق بالذخائر               | مقابل | رد الناس إلى الهدى  |
| الجوار             | ذل الغربية                    | مقابل | ذل الجار السيء      |
| المجد              | البيان والأمجاد المبقية للذكر | مقابل | مجد صنع المعروف     |
| الجواهر والأعراض   | لبس الملابس الفاخرة           | مقابل | لباس الصلاح         |
| محاسن الأخلاق      | أحسن الأشياء عند الناس        | مقابل | حسن الخلق           |
| مجاورة ذوي السلطان | السرور بعبايا الملوك          | مقابل | السرور بالخلاص منهم |

ولو أردنا تجميع هذه التقابلات والبحث عن الروابط التي تلمها، لوجدنا هذا النزوع إلى قيم الخير والتحلي بفضائل الأخلاق، مقابل الدنيا ومتاعها. وهذه النظرة لا تصدر إلا عن إيمان حقيقي واعتقاد متين بنبل الأخلاق والقناعة، وعن محك تجربة حياتية واسعة انتهت بصاحبها إلى اختيار طريق الخلاص والعافية والأمن، خاصة إذا علمنا أن بزرجمهر تحول في آخر أيامه إلى دين المسيحية تاركا المجوسية، وهو ما دفع بكمرى أنو شروان إلى قتله. وقد كتب في رقعة وضعها في منطقتة: "إذا كان القَدَرُ حقا فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طبيعة فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كان الموت نازلا بكل الناس فالطمأنينة إلى الدنيا حمق"<sup>(11)</sup>.

كان بزرجمهر يعرف نهايته حق المعرفة، وقد استطاع أن يصوغ إحساسه بذلك صياغة تبين إدراكه لحقائق الوجود إدراكا تقابليا، ثم تحويلها إلى الآخرين بطريقة بليغة شفافة وواضحة وموجزة. وتلك هي بلاغة التقابل على مستوى صناعة القول التي أشرنا إليها، وتلخصها

(11) اليوسي، المحاضرات، م.م، ص. 225.

التقابلات السببية التالية: القدر حق مقابل الحرص باطل. الغدر طبيعة مقابل الثقة عجز. الموت نازل حتما مقابل الاطمئنان إلى الدنيا حمق. قمنا بهذه الوقفات القصيرة عند هذا النص، لمضامينه الحكيمة القيمة من جهة، وللإستشهاد به من جهة ثانية على بلاغة التقابل التي لا تقف عند الحدود الضيقة التي رسمتها البلاغة العربية القديمة في هذا الباب، وذلك بهدف التأسيس لتصور جديد على مستوى صناعة الخطاب، يهدف إلى استثمار هذه المعطيات في الكتابة الشعرية والنثرية والوعى بها من هذا المنظور، وكذا إدراك مناحيها وعلاقاتها، وانفتاحها على مستوى قراءة النصوص والخطابات وتحليلها.

ونفسح المجال لك - أيها القارئ - مع هذا النص القصير لحكيم العرب أكثم بن صيفي، لتتفاعل معه بأي شكل من أشكال التقابل التي تراها مناسبة لقراءته، عسى أن يفتح لك بابا على الحكمة العربية الواسعة في النثر والشعر، وتشرب من معينها وتستمتع في رحلتك التأويلية بألوان البلاغة التعبيرية:

"من وفى بالعهد فاز بالحمد، ومن اصطنع قوما انتفع بهم يوما. ومن فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، ومن أكثر من شيء عُرف به. ومن حدث من لا يفقه، كان كمن قدم مائدة لأهل القبور، ومن قطع عليك الحديث فلا تحدّثه، إذ ليس بصاحب أدب. ومن عُرف بالصدق قبل كذبه. ومن عُرف بالكذب لم يُقبل صدقه. ومن غضب بلا شيء رضي بلا شيء. ومن أظهر محاسنه ودفن مساويه كمل عقله. ومن غلب هواه عقله افتضح. ومن استشار عدوه في صديقه أمره بقطيعته. ومن فرح بكذب الناس في الثناء عليه بان لهم حمقه، ومصادقة الكرام غنيمة، ومصادقة اللئام ندامة. وعدة الكريم نقد، وعدة اللئيم تسويق"<sup>(12)</sup>.

ولعل خير مقابل للمعاني هو صداها داخل الحياة والوجود والقيم، ودخل قلب كل واحد منا.

(12) المحاضرات، م.م، ص. 224.

## خاتمة

إن التقابل التأويلي مشروع قرائي متعدد الواجهات والمداخل، على مستوى أدوات المقاربة؛ فهو يعضد غيره من المناهج، كما يمكنه أن يستفيد من إمكانياتها وتقنياتها التحليلية؛ بمعنى آخر إنه يؤمن بالأخذ والعطاء، وتبادل الجهود، واستعارة الأدوات التحليلية إذا تطلب الاشتغال على النص ذلك. كما يقوم على الانفتاح والإبداعية؛ إذ يسمح مع كل قراءة، ومع كل قارئ بظهور مفاهيم جديدة، وأدوات قرائية أو تحليلية، لكنه ينطلق من أرضية تأويلية واحدة، وهي رصد التقابلات المعنوية تبعا للعلاقات الموجودة بين الكلمات والجمل والأساليب والضمائر والعلامات والبنى البلاغية، أو أي عناصر نصية أخرى تفيد في بناء المعنى. وتفتح كلما لزم الأمر - وخاصة إذا عجز القارئ عبر المكونات النصية عن بلوغ المعنى - على المواد السياقية التي تُستحضر لحظة القراءة، وفُتق أبعاد تقابلية لدعم القصور التأويلي الحاصل لحظة الفهم وصناعة المعاني.

ليس هناك ما يلزم أي مقارنة تأويلية بوضع مخطط نهائي لمفاهيمها وأدواتها، فهي تظل محل اجتهاد مستمر وتطوير دائم وإغناء وتوسيع وتطعيم. من هذا المنطلق فإننا لا نسعى إلى تقييد حرية القراءة التقابلية وتحديد مفاهيمها وآلياتها في عناصر ثابتة، كما هو معمول به في بعض المناهج النقدية، إذ نستند في اقتراحنا إلى خلفية تأويلية قائمة على نظريات القراءة والتلقي، وإلى نظريات النص والخطاب، وتعدد القراءات.

وهكذا، فبوسع القارئ المهتم بتحليل النصوص والخطابات والظواهر الوجودية من حوله، أن يعتمد المنطلقات ذاتها، والمقترحات

التأويلية التي انطلقنا منها، وأن يختار له من المفاهيم والأدوات ما يراه مناسباً. ونقدم فيما يلي مجموعة من المفاهيم التي استخلصناها من الاشتغال على مجموعة متنوعة من الظواهر النصية<sup>(1)</sup>:

- 1- **التقابل:** محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعضها (وجهها لوجه)، لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي.
- 2- **تقابل الإثبات والنفي:** إثبات معنى ومقابله نفي معنى آخر.
- 3- **تقابل الأحاد:** أي تقابل مفردتين، بأي شكل من أشكال التقابل المذكورة.
- 4- **التقابل الافتراضي:** يقوم على الافتراضات المعجمية والوجودية وافتراضات الإمكان.
- 5- **تقابل الأمكنة:** حضور أمكنة متقابلة في النص بينها علاقات، لها دلالات على ضوء التجربة المعبر عنها.
- 6- **التقابل الاستتباعية:** هي تقابلات متفرعة عن التقابل النووي، تكمله وتوسع مجال المعنى.
- 7- **التقابل الصغرى المؤطرة:** تقابلات جزئية داخل النص، مثل تقابل التناقض، تقابل التخالف...
- 8- **التقابل الكبرى:** تقابل الفقرات، أو المقاطع، أو تقابل النص بنصوص أخرى، تقابل نصوص الديوان الواحد، تقابلات ذات موضوع واحد أو موضوعات مختلفة.
- 9- **التقابل النصية المؤطرة:** هي التقابلات السياقية الخارجية عن النص، مثل أحوال المنتج والمجتمع والتاريخ ومقامات تداول

---

(1) سبق أن أوردنا هذه المفاهيم في كتاب: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، م.م، ونعيدها هنا لتمكين القارئ منها، ومن أراد التمثيل لها فلي نظر هناك.

النص.

10- تقابل التحاور: يبنني على مقابلة الذوات المتحاوره، ومقابلة كلامها، وردود أفعالها، والمواقف والمشاعر المعبر عنها. ولهذا الإجراء دور في بناء المعنى.

11- تقابل التراتب: حضور عناصر بينها تراتبية، وإجراء هذا التقابل يسمح بفهم حسن لها، عن طريق إدراك العلاقات بينها.

12- تقابل التشابه: أن يرد في الكلام مشبه ويقابله في الفهم مشبه به، بشكل صريح أو بشكل ضمني.

13- تقابل التشارك اللفظي: ورود كلمتين مشتركتين في اللفظ، مختلفتين في المعنى.

14- تقابل التماثل: وهو تقابل بين بنية نحوية، أو بلاغية أو صوتية - مثلاً - مع نظيرتها، وإدراك هذا التركيب الاختياري يساعد في بناء المعنى.

15- تقابل التصدير: من التحينات البلاغية، ويتحقق برد العجز على الصدر، وهو يُمكن من إيضاح الفروقات الدلالية ذهنياً.

16- تقابل التفارق: أن يرد في الكلام أمران من نوع واحد، ثم يُظهر التقابل ما بينهما من تفاوت وتفارق.

17- تقابل التمثيل: تقابل يقيمه المؤول بناء على واقعة أو حدث، فيبني معنى مقابلاً يستخلصه اعتماداً على طاقته التأويلية، ويتخذ حالة اعتبارية.

18- تقابل التناسب: الجمع بين أمر وما يناسبه من نوعه، أو ما يلائمه من وجه من الوجوه.

19- تقابل الحاضر والغائب: إحداث تواجد بين أجزاء نصية حاضرة بأخرى غائبة.

20- تقابل حال الذوات: يُدرك بالوقوف على أحوال الذوات المذكورة،

بما يُظهر العلاقات بينها.

21- تقابل الخبر والإنشاء: يتوجه اهتمام المؤلّ إلى إدراك نوع الأسلوب الحاضر في بنية النص، مؤوِّلاً دلالة الخبر والإنشاء على ضوء موضوعهما وموضوع النص ككل.

22- تقابل الخطاب: وهو أن ترد في الكلام ضمائر مختلفة، وبوسع التنبيه لذلك -بشكل تقابلي- تيسير الفهم وإجلاء المعنى.

23- التقابل الزمني: حضور حالات أو أوضاع زمنية متقابلة في بنية الخطاب.

24- تقابل الصيغ والأوزان: هو تماثل بين الكلمات يولِّده اشتراكها في وزن أو صيغة معينة.

25- تقابل الظاهر والباطن: حضور تواجه بين معاني نصية ظاهرة-مواقع ممثلة- بمعاني نصية باطنية مفهومة.

26- تقابل الفاعل والمفعول: ورود الفاعل والمفعول به في البنية موضوع الفهم. وإدراك ذلك إجراء يساعد على بلوغ المعنى، خاصة في البنيات الغامضة أو المشكلة، أو التي حصل فيها تقديم وتأخير.

27- التقابل المتعدد: حضور عناصر متعددة مُشبَّهة تقابلها عناصر متعددة مُشبَّهة بها.

28- تقابل المعنى ومعنى المعنى: المقصود به التواجه الحاصل والمبني بين الجزئيات المعنوية الباطنية والجزئيات المعنوية الظاهرة. ويتحقق عبر المجاز والاستعارة والكناية والتورية...

29- تقابل المقاصد: حدوث تواجه بين مقاصد المنتج -مثلا- ومقاصد المؤلّ الظاهرة أو الخفية، اتفاقاً أو اختلافاً.

30- تقابل المقاطع أو الفقرات: هو تقابل نصي بين بنيتين أوسع من الجملة، بينهما تقابل في معنى ما، بأي شكل من أشكال التقابل

الممكنة، تبعا للعلاقات الدلالية التي يمكن فهمها أو تكوينها: التتميم، الاستطراد، تنمية الحدث، التكامل، الانتقال، التناقض، التمثيل، الاختلال، الاختلاف....

31-تقابل النسق: أي تقابل مجموعة من العناصر يربطها نظام محدد بعناصر أخرى تعتمد النظام نفسه.

32-تقابل النسق التواصلية: نقصد بها مؤشرات التخاطب الظاهرة أو الخفية، التي تحتوي كلا من المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، ومقام التواصل، والعلاقات بين هذه العناصر.

33-تقابل النص وسياقه: تستحضر إلى جانب المعرفة بالنص، معرفة كل المستويات الخارجية: الاجتماعية والتاريخية والنفسية التي توضح خلفيات النص، ومقاصد ونوايا منتج، وأحاسيسه لحظة الإنتاج.

34-تقابل النص والعنوان: تقابل نص مصغر مع عنوان مكبر، تقابل البنية المعنوية المكثفة مع بنية معنوية موسعة ومفصلة، وله مظاهر مختلفة.

35-التقابل النظيري: تقابل بين كلمتين مترادفتين في المعنى داخل بنية واحدة.

36-تقابل النظائر النصية: المقصود به تلاقي نصين أو أكثر في معنى معين، أو موضوع، أو فكرة، أو مسألة لغوية، أو بلاغية، أو نحوية، ويساعد استحضار هذا التقابل في دعم الفهم وبلوغ المعنى.

37-التقابل النقيضي: هو ورود كلمتين متضادين في بنية الكلام.

38-التقابل النووي: هو التقابل المركزي في النص، بين موضوعين، أو حالتين، أو زمنين، أو قيمتين، أو وضعين. ويتبينه المؤول من خلال اطلاعه الأولي الاستقصائي على النص. وهو غير كاف لبناء الدلالة الكلية، لكنه قد يُعتمد كقاعدة لفهم النص أو تفهيمه- خاصة في



مجال تدريس النصوص الأدبية - ليتم استكمال التقابلات الصغرى.  
وقد نعدله كلما تعمقنا في التأويل، وعليه تتأسس بقية التقابلات  
التفصيلية والجزئية.

وإجمالاً، فإن التقابلات حسب المقامات والمحافل المشار إليها،  
هي نتاج الإستراتيجية القرائية التي سعينا إلى التأسيس لها، من خلال  
مقاربة العديد من النصوص والخطابات، وقد كشفت لنا عن قوتها  
التحليلية، في الوقوف على مناحي صناعة النصوص، فيما يتعلق بنظم  
المعاني، داخل قوالب تعبيرية وجمالية أو استدلالية، موجهين في ذلك  
بخلفيات نظرية تأويلية عربية وغربية، وإن لم تظهر في ثنايا هذا الكتاب  
بشكل مباشر، لكن أثرها حاضر بشكل أو بآخر في هذه المقترحات  
التأويلية. ولا شك أن الاعتماد عليها جزئياً أو كلياً من شأنه أن يوقف  
دارس النصوص والخطابات على تجليات كثيرة للتقابل.

كما نأمل أن يُنتفع بآليات التأويل التقابلي في تفسير النص  
القرآني، والحديث النبوي الشريف، وتفهم معانيهما وإيقاف المؤول  
لهم على أسرار بلاغتهما. ومن شأن الخطوات القرائية المتبعة والمفاهيم  
المقدمة الإسهام، كذلك، في مقاربة خطابات النقد داخل حقل نقد النقد،  
والدراسات الأدبية المقارنة.

وأخيراً، فالتأويل بالتقابلات أداة إجرائية ناجعة في المجال التربوي  
والتعليمي، خاصة فيما يتعلق بقراءة النصوص وتحليل الخطابات  
الدينية، أو الأدبية، أو الفكرية، أو الفلسفية المدروسة، لما له من قوة  
قرائية وإقرائية وتفهمية وتبسيطية، توقف الطلاب على المعاني، وكيفية  
صناعتها واكتشاف أسرار جمالها وبلاغاتها.

والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

## المصادر والمراجع المستخدمة

### أولاً: باللغة العربية

- كتاب الله تعالى، القرآن الكريم، طبع بالرسم العثماني على رواية الإمام ورش بالخط المغربي، دار المصحف، القاهرة.
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- بارت رولان، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1986.
- بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة 1، 2010.
- بيدبا الفيلسوف الهندي، كليلة ودمنة، تر: عبد الله بن المقفع، دار الكتب العلمية، بيروت.
- التفتازاني أبو الوفا الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط. 3، 1979.
- الجابري محمد عابد وآخرون، أبو حامد الغزالي: "دراسات في فكره وعصره وتأثيره"، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1988.
- خطابي محمد، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط. 1، 1991.
- (ابن) خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، تقديم أبو يعرب المرزوقي، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط)، 1991.
- خمري حسين، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال،

- الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط. 1، 2007.
- القرطاجني حازم، منهج البلاغ وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 3، 1996.
- القزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. 5، 1980.
- القالي أبو علي بن القاسم البغدادي، ذيل الأمالي وال نوادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج. 3، ط. 1 (د.ت) .
- القيرواني ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد قرقران، دار المعرفة، بيروت، ط. 2، 1997.
- الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، راجعه واعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة 2002.
- (أبو) ريشة عمر، الديوان، دار العودة، بيروت، ط. 1، 1971.
- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، 1988.
- الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تصحيح وضبط: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1995.
- (ابن) الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، 1984.
- (أبو) زيد أحمد، التناسب البياني في القرآن الكريم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1992.
- زيعور علي، الكرامة الصوفية، الأسطورة والحلم، دار الطليعة،

بيروت، ط.1، 1977.

- السبكي تاج الدين، طبقات الشافعية، المطبعة الحسنية، مصر (د.ت).

- السجل ماسي أبو محمد القاسم، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط.1، 1980.

- السعدي عبد الرحمان بن ناصر، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، الطبعة 1، 2000.

- السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1983.

- السهرودي، عوارف المعارف، دار إحياء التراث العربي، ملحق الإحياء. بيروت، (د.ت).

- (ابن) سيده، شرح المشكل من شعر المتنبي، تحقيق: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ط)، 1976.

- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1991.

- الصبيحي محمد الأخضر، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم، بيروت ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 2008.

- (ابن) عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.3، 1987.

- العسكري أبو هلال، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1981.

- العيدروس عبد القادر، تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، ملحق إحياء علوم الدين، بيروت، (د.ت) .
- الغزالي أبو حامد:
- \* إحياء علوم الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، (د.ت) .
- \* جواهر القرآن ودُرَره، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.5، 1983.
- \* مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، تحقيق: عبد العزيز عز الدين السيروان، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، 1998.
- \* معيار العلم في المنطق، شرحه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1990.
- \* محك النظر، تحقيق: رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط.1، 1994.
- القرعان فايز عارف، التقابل والتماثل في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث إربد الأردن وجدارا للكتاب العالمي، عمان، ط. 1، 2006.
- كريستيفا جوليا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط.1، 1991
- كليبو عبد الفتاح،
- \* الأدب والغربة، دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار الطليعة، بيروت، ط.1.
- \* الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال، الدار البيضاء، 1988.
- \* الكتابة والتناسخ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1985.

- \* العين والإبرة، ترجمة مصطفى النحال، الفنك، الدار البيضاء، ط.1، 1996.
- \* لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1، 1995.
- \* الغائب، دراسة في مقامة الحريري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1، 1987.
- مروة محمد رضا، الصعاليك في العصر الأموي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1990.
- مفتاح محمد،
- \* تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ط.2، 1987.
- \* التشابه والاختلاف، نحو منهجية شمولية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1، 1996.
- \* التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت، ط.1، 1994.
- \* دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط.1990، 2.
- \* مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ط.1، 1990.
- \* المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط.1، 1999.
- (ابن) منظور جمال الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط.3، 1994.
- المهدي محمد عقيل بن علي، المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة، دار الحديث، القاهرة، ط.2، 1985.

- الياهوري أحمد، دينامية النص الروائي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط.1.
- يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي (النص - السياق) المركز الثقافي العربي، بيروت - البيضاء، ط.1، 1989.
- اليوسي الحسن،
- \* زهرة الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 1981.
- \* المحاضرات، أعدها للطبع: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1976.

### مقالات:

- عبد العزيز السيل، ثنائية النص، قراءة في رثائية مالك بن الرب، عالم الفكر، 1998، مج.27، ع.1.
- فتوح محمد أحمد، جدليات النص، عالم الفكر، المجلد الثاني والعشرون، 1994، ع.3 و4.
- مفتاح محمد، في سبيل فهم جديد للنقد، حوار مع أجراه محمد الدغمومي وسعيد يقطين، مجلة آفاق الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب، ع.7، 1980.

## ثانيا: باللغة الأجنبية

- **Eco.U,**
  - Les limites de l'interprétation, Traduit par Myriam Bouzaher, Bernard Grasset, Paris, 1991.
  - Sémiotique et philosophie de langage, traduit par Myriem Bouzaher, P.U.F, Torino, 1984.
- **Gadamer. H. G.** Méthode et vérité, Seuil, Paris. 1976.
- **Greimas A. J. et J. Courtes,** Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette Université, Paris, 1979.
- **Houari Touati** , les modèles d écriture des manaqib maghrébines, dans: Histoire et linguistiques- oeuvre collective - université mohamed 5, Rabat.
- **Hirsh. E. D.** Validity in interpretation, Yale universsity press, New haven and London, 1967.
- **Juhl P. D.** Interpretation, an essay in the philosophy of literary criticism ; New jersy, 1980
- **Molino Jean,** interpréter, dans l'interprétation des textes, ed. Minuit, Paris, 1989.
- **Rastier, F.** Sémantique interprétative, Ed. P.U.F, Paris, 1987.
- **Ricœur, P.** Le conflit des interprétations, Ed.Seuil, Paris, 1969.
- **Searle, R.** L'intentionnalité. Ed. Minuit, Paris, 1985.
- **Todorov. T. Ducrot. O.** Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage , Seuil, Paris, 1972.



يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)

[www.jadidpdf.com](http://www.jadidpdf.com)